خريجة المأدبة...

أنا؟

في كلّ عائِلة، هناك فَرد لا يتحدَّث أحد عَنه، وفي عائلتي هذا الفرد هو أنا ..

فَمَن يهتم، لِلفتاة الصاخبة المُتمردة عن كل شيء، التي دَخلت إِلى السّجن التأديبي النّسائي في مملكتنَا العربيَّة السعودية.

لا أحد ألَيْس كذلِك ؟!

ولكن مُدَّة سِجنيّ انتهَت، وحان موعِد العودة لِلعائلة التي تَخلَّت عَنِّي وادعتْ أَني لم أَكُن، حتى أَنني لم أرَ زائرًا واحدًا مِنهم طوال الخمسِ سَنوات في فترةِ تأْديبي ..

ونحن الآن على وَشك الدُّخول في رِحلة سيئَة مِن جميع النَّواحي مع خريجة المأدبة_ أي معيّ أنا.. أُبشركم.

1 || شارب

الجُنون، هذا ما شَعرتُ به بعدما تسللت أَوَّل أشعة فَوق بنفسجيَّة قريبة لِيّ فِي خَارِج هذا المركز التأديبيَّ اللعين.

بعد خِمس سنوات مِن الحَبسُ داخل قفص حديديّ كبير، هنا تَنفستُ الحرية وأخيرًا.

حسنًا هذا جيّد، لكني لماذا لا أرى البسَاط الأحمر السينمائيُّ يُغطي الأرض أستقبالًا واحتفالًا بيّ، إِضافةً لِلعائلة، أين العائلة؟

وقفتُ بِعباءتي الفضفاضة، ذات الإصدار قبل خمسِ سنوات مِن الآن، كانت سوداء لم تتميَّز بِنقوش كثيرة وَأُرغمتُ على وضع غطاء رأس أسود عليهَا، أتذكر أننيّ جئت بها إلى هنا حينها_حين اعتقالي.

كانت أشعةُ الشمس تَثقُب رأسي وأنا أَنظُر حولي فِي كل الاتجاهات ولا أرى شيئًا أو شخصًا مألوفًا، فقط كل شيء حولي يدعو للريبة الأشخاص وملابسهم العصرية بشكل يثير الإعياء والمباني لم تَتغير لكنها أصبحت أكثر صخبًا.

أهلًا بالرياض بِوجهكِ الجديد.

مَشيتُ أولي خطواتي بِفضول، أتفحص هؤلاء السيدات الأنيقات ألتن خرجن من سيارة فخمة أمامي، كُنَّ يرتدِين ثِيابًا تُلائم حفلةً ما أو زفاف إِستقراطيِّ، كان تبرُّجَهم وثيابهن رائعين قَامُوا بِطمسهَما بِفعل العباءات الفضفاضة السوداء التي كانت مفتوحة من الأمام مما جعلني أرى شيئًا بسيطًا من '**كشختهم**'.

ولكن الوضع أثار حَفيظتي قليلًا، حيثُ السيارة تَوقفتْ أمامي تمامًا، وهن أيضًا توقفن أمامي يَرمقُنيّ بِفضول وبعض من ال... الاِستحقار والأنفة.

نظرتُ لَهن بِدوري، كُنَّ ثلاثِ فَتيات وسيدةً، فتاة تَجلس بِمَقعد السائق وكانت أكثرهم مَن ترمقني بِنظرات مُستحقرة وَلكنها كانت جميلة وملامحها الشرقية بارزةً بِمستحضرات التجميل خاصتها، ويمكن أن أُعطيها خمسًا وعشرين سنة أقل تقديرًا.

والفتاتان بِالخلف كانتا أصغر منها بقليل، يشبهون بعضهم البعض بشكل يوحي أنهم أشقاء، ولكن هناك فتاة ترمقني بفضول أكثر من شقيقتها ويمكنني معرفة من الأصغر بينهم بالفعل، الفضولية هي الأصغر أنا أؤكد.

بينما السيدة، هي الشيء الوحيد الجيد هُنا، ليست مألوفةً ولكن نظارتها اللطيفة تخترقنيِّ، كانت مُريبة بعض الشيء لكن لطيفة.

أفقتُ مِن تحديقي المُطول لهم عندما جاءت السيدة ليّ بسرعة تضمني على عجالة وتدفعني إلى السيارة قائلةً بربكة:

"هيا بسرعة، أقسم أنني جئت من وراء والدتك عندما سمعتها خلسة قبل ساعة تتحدث مع أبيكِ بِشأن خروجك اليوم من المأدبة، وقد اتفقوا على عدم أخذكِ لهذا جئت بفتياتي بسرعة لآخذكِ". انتهى حديثها وهي كانت بالفعل دفعت بي للمقعد الخلفي صارخةً في الفتيات بالركوب كي يلحقوا شيئًا ما.

سمعتُ تذمر الفتاة السائقة بينما أحدهن دلفت بِسرعة إلى جانبي لتجلس في المنتصف، أنا في جهةِ باب وشقيقتها الأخرى في الجهة الثانية للباب الأخر، وأستطيع أن أجزم أن التي أتت بسرعة هي الفضولية بلا شك.

حمحمتُ أُجلي حنجرتي بتوتر، ثم قُدمتُ على التحدث مع إنسان خارج المركز التأديبي لأول مرة بعد سنواتي الخمس متسائلةً :

"ولكن مَن أَنتن؟". وللتو استوعبت حماقةُ السؤال، وكان على ما أظن الفرصة المناسبة لسخرية الفتاة السائقة مني وهي تخاطب والدتها:

"أنظري يا أمي، هل هي حمقاء مُنذ والدتها أم يكتسبونها عادةً في المأدبة؟".

-"اصمتِ يا غنىٰ، هي أكبر منك عيبًا عليكِ حديثكِ هذا". قالت السيدة اللطيفة موبخة، لتصدر ابنتها صوتا أشبه بِنباحِ الكلاب، أعتقد أنه تذمر.

تم تجاهل سؤالي بكل تأكيد؛ لذا فَضلتُ الصمت على الاختلاط بها، وقررت إعادة سؤال السيدة بعدما تأتي الفرصة المناسبة وتتبخر تلك الفتاة في العدم، ولكني أَشكُ أنها ستأتي.

"هل أنتِ حقًا م .. من مصدقي أسطورة التوأم الروحـ_..." تحدثت الفتاة التي بجانبي بِلا سابق إنذار وبسرعةً أدهشتني، ولكنها لم تكمل حديثها بعدما قامت والدتها بِالصراخ عليها كي لا تتمادى وتصمت.

مؤشر جيد، على الأقل أنا عرفت ماذا سأسمع عندما أصل لهناك، لِلمنزل والعائلة.

توقفت السيارة فجأة لِترتد أجسادنا للأمام بِفعل قوى القصور الذاتي، نظرتُ بحنق إلى رأس الكرسي أمامي حيث تجلس تلك السائقة المتهورة التي قالت بهدوء وبساطة:

"وصلنا".

نَظرتُ حولي بِفضول، لم أَعلم مِن قبل أن منزلي أصبح قاعة زفاف راقية كَتلك.

الفتيات بِجانبي نزلن واحدة تلي الأخرى، ولكني لم أتزحزح مَجلسيِّ عندما استنتجت شيئًا عبقريًا؛ هن كُنَّ يرتدين ثياب حفلات لأنهنَّ ذاهبات لِحفلةً أو زفاف ما، وأخذي معهم لم يكن مِن المُخطط له، لهذا جئت أنا لِهنا معهن قبل الزفاف بِساعة.

مَما جعلني أنظر لِظهر السيدة أمامي، أنتظر توبيخًا أو ما شابه، أو عبارةً قائلة بها إنني يجب عليّ الانتظار في السيارة بينما تنتهي أُمسيتهم الطويلة.

ولكني جَفلتُ عندما سمعت عبارتها التالية الهادئة ولكن بها ارتباكة بسيطة:

"هيا يا بُنيتي، إلى الخارج ماذا تنتظرين؟".

نظرتُ لها بتوتر كبير، هذا لا يمكن أن يكون عرض على إحدى خارجيّ المركز التأديبي النسائي، الذي يكون أشبه بالجحيم على الأرض، ونسائه كذلك، أنه عرض رائع ولكني لا أستطيع استيعابه، ولا أستطيع التحكم في رجفةِ يدي الفرحة أو حديثي المتوتر عندما قلت:

"أ... أ... هل... يعن_...".

لكني قوطعت مِن قبل سخرية السائقة الشمطاء التي كانت لا تزال تجلس في مكانها:

"أمي لا تفكرين كثيرًا بِهذا اتركيها بالسيارة مثلما اقترحت عليكِ سابقًا ولِنذهب، أُسامة ينتظرني منذ مدة".

والدتها حدجتها بِنظرةً مُشتعلة وهي تلتفت بِنصف استدارة ليّ وترسم أكبر بسمة لطيفة رأيتها بآخر خمس سنوات، ثم قالت بهدوء يليق بوجهها البشوش:

"لقد جهزتُ بالفعل الفستان التي سترتديه الليلة مع أدوات التجميل كلها بالحقيبة الخلفية في السيارة، وأنا أرى أن مجيئكِ ورؤية والدتكِ لكِ سَتسهل أمر إقناع طويل بِجلوسكِ في منزلها، أي منزلكِ السابق ...".

صَمتت قليلًا لِترادف بِتوتر طفيف:

"أنا أصدقكِ بُنيتيّ، أُصدق أنكِ فقط كُنتِ في المكان الخاطئ والوقت الخاطئ وأعلم أنه ليس من شأن أحدٍ بِالعائلة التحدث بِهذا الأمر لهذا دعينا نغلقه سويًا من الآن".

كيف تكون تلك السيدة أُمًا لتلك الشمطاء الجميلة لا أعلم، ولكني ابتسمت بقوة وأنا أومأ بالموافقة.

وهذا فقط جعل الفتاة الشمطاء تنزل زجاج السيارة حيث كانت الفتاتان يتصورن سويًا، ثم صاحت فيهم بُتعصب قائلة:

" هيا إلى والدكم أسرعوا، سنذهب الآن مثلما قالت أمي وإذا سألكم أحدهم عنا قولوا إي شيء عكس الحقيقة".

نظرتا لها ثم أومأت كُلًا منهما بِالموافقة، لِتشرع الأخرى بِالقيادة ويشرع قلبي بالنبض بِقوة وتوتر.

وقفتْ السيارة تمامًا خلف باب حديدي تجلس أمامه عاملة نظافة، وقفت حينما رأتنا توقفنا أمامها، نزلت السيدة اللطيفة التي لا أعلم كيف سأسألها عمن تكون من أقاربي، أشرت لي بالنزول اتجاه الباب ففعلت جافلة عندما حلقت غنىٰ بالسيارة تصفها وتعود بسرعة مُمسكة بِحقيبة كبيرة وشيء طويل مغطِ بِحافظةً.

عندما وقفت أمامي ألقت بالحافظةُ فِي وَجهي بِقوة، اندهشت لِثقلها، ولكنيّ سرعان ما حملتها بخفة؛ فَفِي المركز التأديبي تعلمت حِملُ ما هو أكثر ثقولةً مِن هذا.

دَلفتُ الغرفة بَعد عدةِ نقاشات بين السيدة والعاملة، ولِدهشتي كانت غرفةً واسعةً ذات استخدامات عديدة بشكل عصريٍّ وأنيق، وبها مرحاضًا أيضًا.

كانت هُناك مرآة كبيرة في منتصف الغرفة، أخذني فضولي لرؤية نفسي بها، أَلقيتُ الحافِظة على أقرب كرسي وتَقدمتُ بِهدوء أتأمل مظهري بقلبٍ مُنفطر.

لم أرَ شكلي منذ خمس سنوات، كدت على نسيان تفاصيل ملامحي التي اعتدت على مدحها بين العائلة كلها بين الأقارب والأصدقاء، والتي-بِحمد الله- كانت مقبولة بِشكل يوحي على إبداع الخالق في خَلقه.

ولكني أَطلقتُ شهقةً مَدهوشة حقيقة عندما نظرت إليها _إلى نفسي ...

لديّ شاربٌ .. شاربٌ كبيرٌ.

2 || وفاة وزوجة

"صه، اصمتي قليلًا". تحدثت الشمطاء متجاهلة تأوهاتي تُّباشر عملها في شعري الذي فات دهرًا لِتمشيطه بِالحرارة والمُصفف الكهربيِّ.

كان كل جسدي يَشتعل، كأنني ولدت لتويّ، ولكنه شعور مُثير.

دلفتُ أولًا لِلمرحاضِ واكتشفت أنه مجهز بِشكل رائع للاستحمام، لذا؛ انتهزتُ الفرصة وَغصتُ مع فقاقيع المياه، وبعدها تخلصت من شاربي وبعض الأشياء الأخرى.

خَرجت مِن المرحاض لأرى غنىٰ والسيدة زهراء- كما قالت ليّ- ينتظرونّني، وكانت غنىٰ تنتظرنيِّ بأقسى أنواع العذاب التجميلي.

فعلنا كل شيء يجعل بشرتي قابلة للحياة من جديد، ثم استخدمت كل أدوات التجميل في الحقيبة بِحرص، وبدت لي أنها استخدمتها باحترافية لم أرها طوال أعوامي الثلاثين.

كانت الشمس قد غربت بالفعل عندما تجرأت وسألت غنىٰ عن الزفاف ولِمن يكون، وإجابتها التي دهشتنيِّ قليلًا جعلتني أصمت وأُطبق فمي إلى الأبد.

قالت ليّ: "إنه زفاف والدكِ".

كانت كلمات كفيلة بجعل غمامة ذكريات تحوم حول رأسي وتتمكن مني ببطء، أبيّ مُنذ زمن من مقيدي فكرة تعدد الزوجات ولكن أمي كانت تردعه عن هذا، والآن فهمت أنها فشلت وها هو يتزوج ثانيًا.

وأنا أتجهز لحضور زفاف أبي، يافرحتي.

- "انتهيت، هيا سأنتظركِ بالخارج مع أمي يمكنكِ رؤية طلتكِ في المرآة وارتدي الفستان بسرعة، نحن بِالفعل متأخراتٍ".

تحدثت غنىٰ فجأة، لأهمهم بلا اِهتمام ذاهبةً لارتداء الفستان الذي توقعتُ كونه مُمل وعادي لأنه غير مُرتب له مِن قَبل، وَلكن هناك شهقة متفاجأة خرجت من فمي بعدما أزلتُ الغطاء.

خرجت غنىٰ من الغرفة ضاحكة بعدما عدلت هندامها، وأنا نظرت إلى الفستان الرائع بِعدم فهم.

كان مليء بِالتفاصيل الرائعة، التي فُصلِت خصوصيٍّ لِجسد المرأة التي سترتديه، فلم أُضيع الوقت أكثر ولبسته.

عانق جسدي بِنعومة مع لمسته الحريرية، كان وردي به وِسع مِن القدم وفي الخصر كان يبرزه، بالأعلى قليلًا تناغم مع فتحة الرقبة بتدرج حبات لؤلؤ رقيقة.

وجدت بالحافظة عباءة سوداء مثل التي يرتدونها هنا خارج قاعة الزفاف، ارتديها اَطمُس مَظهري الرائع عن أعين المُتطفلين، ووجدتُ أيضًا أقراط فضيّة أنيقة، ارتديتها هي الأخرى بِتمهل أقترب من المرآة وصورة شاربي تتراقص في عقلي.

شهقةً أخرى خطفت أنفاسي بعدها ابتسمت بعذوبة تليق على وجهي الجديد في زيه القديم.

ها هي، عادت **غَيداء** من جديد.

والآن لستُ خريجة المأدبةُ.

***

"بِسمٍّ الله الحافظ عليكِ يا غَيداء، كَبدرِ رمضانِ أو أجمل حبيبتي". تحدثت السيدة زهراء لابتسم لها بِصدقٍ حقيقيٍّ وَمحبةً كبيرةً تكونت فِي قلبي لها.

أَمسكتْ يدي بِحنان تنظر إلى الباب الذي يفصلنا عن العائلة كلها، وَقالت كلماتها بنصحٍ واهتمامٍ بالغ:

" غيداء، كما قُلت لكِ مِن قبل، هذه هي الفرصة الوحيدة كي تكسبي والدتكِ بِصفكِ من جديد، يجب فقط عليِّ تنبيهكِ أن... «أطلقت تنهيدة طويلة» أن العائلة لا تعرفك، لا يتذكّرونكِ فكما تعلمين أنتِ دلفتِ المأدبة مُباشرة بعد رجوعك من السفر بِبريطانيَا، فَقليلون، قِلة بسيطة من يتذكَّرونكِ وأنا منهم، لذا؛ أُريدك أن تخرجي غَيداء الحَقيقة اليوم، الفتاة المُتفوقة التي عَادت لتوهَا مِن بلد مُتقدمة حاصلةً على شاهدة البكالوريا، وليست غيداء خريجة المأدبة، كوني أنتِ، وتذكرين أنا أثق بكِ".

كَلامها كان الدَّفْعة المُنتظرة كي أدلف بِثقةً وأعتزاز، لم أنظر لها مجددًا خَشية إهتزاز ثقتي الواهيةِ وأنا أسحب يديَّ بِتوتر شاكرةً لِتلك التربيتة المُراعية على كتفي، ثم سَمعتها تهمس بهدوء جانب أذني:

"أنتِ صديقة غنىٰ، هيا يا عزيزتي".

بهويةٍ مُستعارة دَلفتُ القاعة الواسعة، دقات قلبي أصبحت هستيرية عندما وجدت الأنظار كلها توجهت إلينا_إليّ.

كانت قاعة نسائية مُنفصلة عن قاعة الرجال، لم تكن أجواء سهرة بل كانت جلسة عائلية عادية ولكن الشيء الذي يدل عن أنه زفاف هو الموسيقى الهادئة والفستان الأبيض البسيط الذي ارتدته العروس، إضافةً للملابس الأنيقة المتألِّقة من السيدات والفتيات الصغيرات والمراهقات.

كانت جلسة لطيفة وهادئة، ليست صاخبةً كما في أيِّ زفاف طبيعيّ، ولكن هذا جيد أيضًا.

لم أتمكن مِن النظر أكثر، حيثُ تم أخذ يدي بِواسطة شقيقة غنىٰ الفضولية، نظرت لها بِتفاجؤ لتهمس بسرعة وحماس:

"هيا يجب نلحق أن نلتقط الصور التذكارية قبل إعلان المِلكْةِ".

كَدَّت أن أصرخ بها أن الزفاف زفاف والدي لا نفس ليّ بِالالتقاط الصور، ولكني تذكرتُ أن الأنظار لا تزال عليَّ وأن هناك سيدة جذبت ذراع السيدة زهراء بقوة تتحدث عني، لهذا تنهدت واقتربتُ من الفتاة الفضولية متسائلةً :

"ما اسمكِ قوليِّ؟".

- "آ... أُدعى قَمرٌ ". ابتسمتُ لها بمشاكسة أعانقها نصف عناق وهي ترفع الكاميرا لالتقاط الصورة، وحينها قُلت مبتسمة بتوسع بينما أنظر للدائرة السوداء في يديها:

"اسمًا على المُسمى إِذًا".

التقطت الصورة وحررتني أخيرًا، فَجلتُ بِنظري إلى السيدات، ألتن لازلن ينظرون لي خلسة، ولكنيِّ رأيت أحدهن ترمقني بقوة دون خجل.

وكانت هِي أُمِّي.

بِابتسامة ذابلة ذَهبتُ إليها، لتذهب أنظار النساء إليها كذلك، فرمقتني بِتُّوتر ونظرت حولها خشيةً أن تعرف أحدهن أنني ابنتها.

- "هل تعرفينها يا كريمة، إن كنت فأنا أحب أن أعرف فتيات جميلات مثلها".

نَظرَتُ لأمي بِترقب أنتظرها تتحدث، ولكنها رمقتني شرزًا وهي تهز رأسها بكلتا الجهتين نافيةً، سَمعت صوت قلبي المُحطم يتحطم أكثر وأكثر، هنا فقط وجدت السيدة زهراء تأتي ليّ بسرعة وتمسك ذراعي مستندة عليه، ثم حدثت السيدة التي طرحت السؤال قائلةً :

"إنها صديقة غنىٰ، هي جاءت اليوم معنا لِأنَّها ضيفتنا اللَّيلة، جاءت لِتوها مِن بريطانيا، أنهت البكالوريا وشاءت أنّ تذهب لِبيت الله الحرامُ، ولكن أهلها يقيمون حاليًا، فأتت لنا وحدهَا".

بسرعة وثقة تحدثت السيدة زهراء، وأنا لا زال أرمق والدتي بِخيبةِ أمل كبيرة، ولكني سرعان ما حولت نظري للسيدة التي تحدثت من جديد ليِّ :

"إنه لشرفًا كبيرًا مَعرفةُ أشخاص متفوقين مثلكِ، كُنتُ أتمنى رؤية ابنة أخي في مكانكِ، فهي كانت جميلة ومتفوقة كذلك دُرستْ بِبريطانيا، ولكن شاء الله رد أمانته لها في طريقها للمنزل بالسيارة .. كان حادث فظيع حفظكِ الله منه".

الدموع تَلألأت في أعينيّ، أنا مُت لديهم إذا مُنذ زمن، كان الشعور غريب عليّ كنتُ تائهةً.

نَظرتُ إلى السيدة زهراء بِحسرة، لتؤما ليّ أن لا أَهتم، وبعدها سمعت صوت السيدة_عمتي تتحدث مُجددًا :

"إن كانت حية رحمها الله، لستكون اليوم أتممت عامها الثلاثون مُنذ شهرًا، إضافةً أنها لم تكن لِتفرح بِزواج أبيها لِمرته الثالثة، فالسيدة كريمة زوجته الأولى، ثم السيدة زهراء، ثم تلك الشابة السعيدة هناك".

لم أَعد أعلم عدد المرة التي دُهشت بها اليوم ولكني لم أتأثر كثيرًا، فَمن لا يُحب أن يكون لديه زوجةُ أب حنونة مِثل السيدة زهراء؟

نظرت لها وهي تهربت من مبادلتي النظر، وابتسامة أمي الساخرة شعرت بها في رأسي، ثم تبعها صوتها ذي الكبرياء والأنفةِ الذي اشتقته كثيرًا:

"أعتقد أنها لو كانت حية، سَتحبُ زهراء أكثر مِنِّي..".

3 || يُدعى أُسامة

دَّق ناقوس الخطر؟ فالأَبواق أَخذتْ بِالهدير بِقوةً؛ معلنةً عن وصول العريس، جَفلتُ على الضجة الكبيرة حولي وصرخاتِ المُراهقات أنَّ الموعد قد حان.

كان الأمر حماسيًّا كثيرًا، وَلكونيِّ لَم أَستطع حضور زفافٍ سعوديٍّ تقليديٍّ مُنذ زمن طويل، كُنت سعيدة بِالأجواء مُحاولةً شغلُ عقلي بعيد عن كون والدي هو مَن سَيتزوجُ.

- "سأكون بِالجوار عزيزتي، إنه موعد عقد القِران ورجالُ العائلةِ وأبيـ_... العريس هم فقط من سيدلفون؛ لذا، لا حرج عليك بِعدمُ التغطيةِ ".

تحدثت السيدة زهراء مِن جانبي، وما كدّتُ أن أجيبها حتى استمعتُ لِصوت عمتي المرتفع جعلنِّي أتقدم خطوتين إلى الأمام بِهلع، كانت ولمفاجئتي تقف خلفِنا تمامًا، ومِن الواضح أنها اَستمعت للحديث لأَنها تحدثتْ بِعصبية وصوتٌ قويٍّ مُجلجل تُمارس دور الحماةُ بِاحترافيةٍ، وكأنها جدتي:

"ماذا، بِماذا تهذين يا زهراء؟ إنها غريبة عنا، احفظي أمانةِ أهلها وصوني عرضها فهي ضيفتكِ ... هيا عزيزتي أعبائتكِ تلك؟ أَرتديها هيّا".

ألبستني إياها بسرعة وقوة شديدة، لأَطُمس مَظاهر حِلتي وَتبرجيِّ، ولكنيّ لَم أهتم كثيرًا غير مِبالية كوني الوحيدة التي اِرتدت عباءتها بين كل نساء القاعة.

فُتِح الباب ودخل الرجال الذين كانوا كثير كما توقعت، الضجة عَمت كُلَّ شيءٍ، والأضواء أَصبحت مُظلمةً أكثر عن ذي قبل، ولكن لا يزال واضحًا كوني الوحيدة المرتدية للعباءة.

وجدتُ الفرصة سَنحت ليِّ، أُقطع الطريق القصير بيني وَوالدتي التي كانت لا تَزال تجلس فِي مكانها، وكأنها تنتظرني.

بتُّوتر شديد جلستُ جانبها وَقلبي أخذ يطرق بِهستيريةً، بِلا خجل أَخذت أُراقب ملامحها عن قرب، كانت تنظر للأمام متجاهلتنيّ، ولكني دققتُ النظر بِوجههَا الذي فقد بريقه الجميل، وتلك الخطوط غير المتساوية التي تسللت إلى بشرتها البيضاء كأنها داءٍ خطير، وأيضًا فمُها المتقوس في عبوس، لَم تكُن مبتسمةً كما عهدتها ..

- "هُنا ليس مكانكِ، أنتِ تنتمينَ للمأدبةِ، ولا أرى فِي مجيئكِ سوي وقاحةً وتعدي على العِائلة، لكني لا عُدتُ أهتم فإِذَا زهراء مَن حملت مسؤوليتكِ أنا لا أهتم لِتشتعلي معها".

بِبطء وهدوء شديدين تحدثت وهي لا تزال تنظر إلى الأمام مُبتسمة لِلأشخاص بِبرود، وما كان مني سوى إطلاق تنهيدة مختنقة، ثم قَلتُ بعد دقائق قليلة :

"كان بِإمكانكم إخراجي مِن هذا المركز اللعين مِن اليوم الثاني ليِّ هناك، لديكم أموال كما أرى، حتى إن لم يكن أبي يريد، ولكن أنتِ .. إننيّ أبنتكِ الوحيدة_..."

- "ماتت".

نظرت لها بخيبة، لِترادف وهي تنظر ليِّ بِقسوةً :

"كان لدي ابنةً وماتت، في الحادث كما أخبرتك السيدة جواهرُ قبل قليل".

تبادلنا النظرات والحرقةُ اللعينة لا تترك صدري وشأنه، صمتتْ لبضع دقائق أخرى، ثُم سرعان ما نبستْ بِعصبيةً وغضب لَم تعرف التحكم بهما :

"المَركز اللعين ها؟ أظن أن الخمس سنوات لم يأتوا بالرجىٰ المَطلوب بعد، لهذا يمكنني حديث المركز اللعين خاصتكِ أنكِ تسيئين السلوك بِالخارج فيذهبون ويقبضون عليكِ لِخمسِ سنواتٍ أُخرى ما رأيكِ؟ فكرةً رائعةً أَلَيْسُ كَذلك".

حدقتُ بها بِصدمة وأعين تكاد تخرج مِن محجرهمَا، لم أَكن أتمنى أن تسوء الأحوال هكذا، مهما ارتكبت من إثمٍ عظيم أنا لا أستحق معاملة كتلك، إضافةً إلى أنها والدتي بحق الخالقٍ، مِن مَتى اكتسبت هذا القلب المُتحجر القاسي الجبار؟

شهقةُ بكاء خرجت من فمي دون رضى، نظرتُ لها بأعين مغرورقة بالدموع الحارقة، ثم تحدثت أرجع نظري إلى حجري حيث يدي البيضاء يظهر على باطِنها بَعضُ الجروح :

"كنتُ أنتظركما اليوم بلهفةً وتأملٍ، ولكني وجدت بدلًا مِن هذا إخباري عن طريق سيدة لا أعرفها أنك ووالدي اتفقتم على عدم أخذي .. كنتم تريدون الإلقاء بي داخل ضواحي الرياض بلا مأوى، هل قلبكِ راضٍ عن هذا؟ ".

رفعتُ عينيِّ بقوة أناظرها وكل كلمة خرجت من فمي عقب تلك اللحظة كانت صادقة نابعةً من قلبي:

"الآن أنتِ تعرفين، أنَّ ليست غيداء أبنتكِ من ترفع عينها بأعينك إن كانت مذنبةً حقًا، إنِّ كانت هي المتهورة التي تذهب لـ_... اسمعي لا أَهتمُ، أرى والدي منشغلًا بالفعل بزوجاته وبكِ، وأنتِ مُستعدةً على الإلقاء بي للجحيم مجددًا فلا بأسّ يا أمي، أنا اليوم مُت لهذه العائلة، وبكامل قواي العقلية أنا أَنسحب".

تحدثت أخر كلامي بِسرعة وإرتباك، ثُم ما إن قدمتُ يدي لها للمبايعةُ على حديثنا، نَظرت ليدي المحدودة لِعدة دقائق تتفحصها، وكان باطنها لَم يوجد به مكان لم يملأ بِجروح الشظايا الزجاجية -نوع مُبتكر مِن العقابُ التأديبيُّ-، فتحت فمها وأغلقته مجددًا تبتلع حديث كانت على وشك قوله، ثم أخذت يدي تُصافحهَا بِارتجافة مُرسلة لي نظرات مُهددة.

رجعتُ خطوات للوراء مِنسحبة بالفعل، ولكني اصطدمت بحائط بشري صلب، شهقتُ بِفزع وأنا أرى هذا الشيء أمامي ... لا أتذكره كثيرًا ولكنه إن كان هنا إذا هو من العائلة.

- "اعتذر يا آنسة". تحدثت صوته الرجولي المتوقع، هيئته التي تدل على أنه أحد الرجال الإستقراطيين وهندامه المرتب، كان كل هذا كفيل برفع دقات قلبي، ولكن تجاهلت تلك المضخة الحمقاء بي وأنا أهمهم بِتُّوتر وأذهب باحثةً عن السيدة الزهراء.

أريد إرجاع الفستان الذي أرتديه، لأنه بلا شك ثمين لدرجة أنه أغلى مني قيمة، فكما ترون أنا الفتاة التي بلا مأوى ولا عائلة في وسط عائلتهَا.

وجدتها بسرعة ولم أستطع عدم فعل مئة حادث قبل رؤيتها والاصطدام برجال ونساء، أُعتذر من الجميع بِهستيريةً وَتوتر، كنتُ أريد البكاء؛ لهذا كنت هلعة.

- "كُلَّ شيء سار على منحنى سيئ، لُهذا أريد الذهاب من هنا بإسراع وقت أرجوكِ .. آه لا تقلقين أُريد تبديل ثيابي قبل الذهاب، سأسترجع عباءتي التي ارتديتها أولًا".

استطعتُ -وعلى الرغم من الضوء المظلم- رؤية تعابيرها الحزينة وهِي تنفى على حدوث شيء كهذا، كالذي أقوله. سحبتني مِن يدي إلى خارج القاعة، تزامنًا مع سماعي لصوت وصول الشيخ الذي سيعقد القران، وهُنا جاء في خاطري شيء؛ لماذا السيدة زهراء وأمي ليسوا حزينات لزواجُ أبي للمرةِ الثالثة؟

العروس كانت فتاةً صغيرة بالسن قليلًا، مِن الممكن كونها في نفس عُمريِّ، وهذا شيء جعلنّي أكره مقابلةُ أبي أكثر من كرهي لها من البداية.

أخذتني إلى موقع أقل صخبًا وقالت بهدوء تُمسد على وجنتي بحنان :

"لا تقلقين صغيرتي أنتِ مسؤوليتي مِن الآن، أنا أعرف كريمة هي تقسو قليلًا و-...".

- "لا، ليست كذلك يا عمة -اسمحيّ لي أن أقولها لك- أنها أمي وأنا أعلم عنها أكثر من إي شخص للأسف، والآن أنا بأحسن حال وحاولت لتوي بدء صفحة جديدةً بفضلكِ، ولكن لا فائدة .. لذا دعينا نشكر القدر، أنا لستُ قاصرًا وباستطاعتي العمل كما أن لدي شهادةً مطلوبة في الآونة هذه، سيكون فرصة الحصول على عمل صعبة قليلًا نظرًا لِكوني خريجةُ المأدبةِ ولكنها ليست مستحيلة أيضًا ".

فتحت فمها عدة مرات ثم أغلقته كسمكةً تُريد التنفس فوق الماء، ثم نظرت للأرض بِخيبةً قتلتني مِن الداخل، ولكن لا حل لِتلك المعضلة بشكل أو بآخر.

كنتُ أتمنى لو أن ... لوالدتي قلبًا حنونًا كقلبهَا، لَم يكن حالي هذا الآن، لكني محيتُ تلك الأمنية سريعًا، ونظرت لها بِحُبٍ حقيقيٍّ يزداد كل مرة، قائلةً :

"أُنظري لَا تحزني هكذا يا عمة، أنِّي أَرى رؤيتي لكِ هي هديةُ خروجي التي أَملتُ أن أحظى بها كثيّرًا، وكونيِّ عَرفتُ سيدةً حنونًا مثلكِ تعاملني هكذا لهو أمر أود حمد الله عليه".

كنتُ قد تأكدت أنَّ الخير الوحيد الذي فعله والدي ليِّ، هو زواجه من تِلك المرأة.

نظرت ليِّ، الحزن لم يُفارق مُلقتايها بعد، ولكنها ابتسمت بشاشة رجحت كونها تُسمىٰ بها بِالفعلُّ، ثُم قالت محتضنةً كفيّ يديّ بِحنان يدغدغ قلبي :

"أنتِ أصحبتي ابنتي الرابعة والله على قولي شاهدًا، صراحةً كنتُ حزينةً على كَريمة كونها فقدت ابنتها وفي اليوم التالي اكتشفت زواجي بِزوجها، كنتُ مُشفقةً على تلك الفتاة التي توفيت وهي في ربيع شبابها، ولكن عندما رأيتكِ وقعتُ في حبكِ فورًا، وحزنتُ أَكثر على حال المسكينة كريمة".

ابتسمتُ بِوهنٍ، ثم شاكستها رافعة يدي جانب راسي بعلامة التحيةُ الرسمية للشرطيين:

"احذري يمكن أن تكون البوْص -قلتها كناية عن غنىٰ «Boss/ رئيس» - فِي الجوار".

ضحكت عليَّ بِقوة، وَقمتُ مشاركتها القهقهةِ كذلك، ولكن سرعان ما تلاشت ضحكتها وحلت مكانها ابتسامةً ذابلةً، حان وقتُ الوداع إذًا، تنهدت بثقل أُربت على كتفها ثم قلتُ بهدوء:

"لا مكان للأموات بين عوائلهم، فإن جاءوا طاردوهم العوائل بالبخارِ والتسبيح.

ولا مكان ليِّ هُنا يا عمة زهراء، أشكركِ على كل شيء، وأتمنى أن لا يَعرف أبي بكوني جئتُ منك أو طريقة مجيئ معك حتى، لا أَريدك أن تسقطي بالمتاعب بِسببيِّ".

نظرت لي بِلهفةً تَهز رأسها نافيةً حديثي، ولتوي لمحت نظرة شفقة في عينيها ... حَطمت ما تبقى مني، ولكني أَثرّتُ على الثبات حتى اللحظة الأخيرة، وهي نطقت برجاء:

"غيداء لَا_...".

- "غيداء؟". أنطلق صوتًا مِن العدم فجأةً، وكان لِرجل ومصدره ورائي بِخطواتٍ قليلة، قطبت جبيني مُتعجبةً وبسرعة ألتفتُ إلى الوراء حيثُ كان يقع وجهه المألوف.

الشاب نفسُه، الذي اِصطدمتُ به أثناء انتهائي لحديثي مع والدتي.

رفعتُ له إحدى حاجباي منتظرةُ إكماله الحديث، بادلني النظراتُ المُشككةُ كذلك، يتفحصني دون خجل، ومَن قطع الجو المشحون بالسالب هي السيدة زهراء عندما قالت موجهةً حديثها إليه :

"بِلال؟ ماذا تفعلُ هنا؟".

بِلال، لم ينزل عينه مِن عليِّ لِدقائق بدت طويلةً جدًّا ليّ، ولكنه مع حمحمةُ العمة زهراء نظر لها وهو يرفع شيء في يده مؤشرًا ليَّ، تزامنٌ مع قوله:

"كنتُ أَبحثُ عنهَا، قد سَقط مِنها إحدى أقراطهَا وتعلق في معطفي أثناء اصطدامها بي وهرولتها، ولكني أنشغلتُ لاحقًا بِخالتي كريمة التي كانت تبكِـ... اوتش، لا يفترض بي قول هذا".

تبكي؟ ...

- "أُمي، أُمي تبكي لماذا؟؟". لم أَكُن المتحكمة، عندما هرولتُ أقف أمامه متسائلةً بِعصبية مُفرطة، والقلق والخوف كانوا مِن نصيب عقلي وكياني كله.

- "أُمكِ؟".

شَتمتُ غبائي، يال الحظ، أقتربتْ مني السيدة زهراء تسحبني إليها ببطء وتقف أمامي، مقابله، بينما هو غمغم بشيء ما ثم قال بعدها بثوان:

"خُيل ليِّ، أنني أستمعتُ مُنذ دقيقةً اِسم غيداء ... ابنةِ خالتي كريمة المتوفاة، ثم تقولين أنها أَمكِ، ماذا أ الميت يُحيى مِن جديد في عائلتنا أم أنتِ شبحًا؟".

تخطيتِ السيدة بِخطوات مُشتعلة، وقفت أمامه في تواصل بِصريٍّ، لم أقطعه ولم يرمش لي جِفنًا وأنا أنتشل القرط من يديه بقوة قد تؤدي- أو تكون أدت بالفعل- إلى تمزيقه، ودون أن أُزيح عينيِّ عنه قلتُ بِعدوانية :

"لا شيءٍ مما استنتجته صحيح، والآن هيا اذهب لِأمـ_... لِخالتك واعرف حالها بِسرعة هيا".

- "خالتي تبكي على زوجها الخرف الذي يريد الزاوجُ، وكأنه في موسم التزاوج السنوي، ولا شأن لك بأمري يا 'من لستِ غيداء' ".

نظرتُ له بِحقدٍ، ثُمَّ نظرتُ إلى السيدة زهراء التي تنظر لي نظرات قلقةً ..

أُمي تبكي بسببيّ يا فرحتي! والآن كذبةِ موتي التي اخترعوها سابقًا قد بدأت بِالتصدع، ولا أعتقد أنَّ هذا الشخص أمامي غبيٌّ أو أخرقٌ لأكذب عليه بِسهولة، لديه عقل وهو يعرف كيف يستخدمه بِالفعل.

- "أنتِ هي غيداء ألَيْسُ كذلكَ؟ أنكِ تشبهينها حقًا، الصور التذكارية القديمة؛ كنتُ متأكدٍ مِن كون هناك شيء خاطئ أو خطبًا ما ..

لا كانت هُناك جثةً لِدفنها ولا حتى سيارةً مُحطمةً بالشكلِ الكافيِّ لكونها دهستها، حتى أنَّ السيارة صُلحِت بعد عدةُ شهور ناجيةً مَن الحادث، وأنتِ .. آسف أقصد غيداء لم تنجي وماتت!؟

يالها مِن فتاةً هشةً مثيرةً للشفقةِ ".

- "أَصمتَ".

الغليان داخلي، أكبر من غليان بركان قعرُ عدن، كنتُ مذهولةً وغاضبة منه لِحدٍ كبير، لِحد جعلني أتذكره أخيرًا، ذلك الصبي الشقيُّ ابن عمي الأصغر، بِلال الذي يصغرني بِخمسةِ أعوام.

كنتُ بِالفعل غاضبةً، ناقمة، حاقدة، حزينة ومضطربة لحد خطير، فهو الآن كان الأُكسچين الذي ساعد على ازدياد اشتعَلي ولهبتي المنطفأة مُنذ يوم علمت كون تم محيي مِن العائلة كلها، ثاني يوم ليِّ بِالمأدبةِ.

فكرتُ قليلًا بِعقلانية، أأخافُ مِمَن؟ سابقًا كان لدي عائلةً، أخافُ عليها مِن الضرر والسمعةِ السيئة، أخافُ عليها مِن التبعثر والتفكك، ولكنها الآن بالأساس مُتفككةً، لا أحد يعرف عني شيء منهم جميعهم بِكل حال، ولا أحد منهم يتكرم ويُفكر بيِّ، لأنني مُت، بِنظرهم على الاقل.

ولوهلةً، خطرت بِعقلي فكرة كونه صادقًا بِحديثه، أُمي المعتزة بِنفسها وكرامتها وكبريائها كأنثي إستقراطية في المجتمع المخمليُّ، لماذا لا تبكي على حالها وسؤوه؟ زوجها يتزوج لِمرته الثانية عليها، وابنتها خريجةُ المأدبة ... لا حاجة لي بِذكرها أنتم تعلمون.

يمكن أنني كنتُ هفهفاتِ الأُكسچين لها كذلك.

ومما سبق؛ يُمكنني التهور قليلًا، قتله ربما؟ حينها سوف أدلف إلى السجن الأعلى، وليست مأدبة تافهة نمارس بها أعمال كأعمال حصة الاقتصاد المنزلي والآداب في فنون طهي الطعام على شعلةً واحدة أو حتى العقاب بِشظايا الزجاج.

ويمكنني التقرب من أُمي قليلًا، عن طريق التخلص من ذلك البغيض الذي سيكشف حقيقة كذبتها المتقنةِ، وموت ابنتها المُزيف.

تنهيده كبيرة صدرت عني، أرمقه بِحقد، وفي عقلي إضافة لكوني قد فكرت قتله عدة مرات عديدة، ثُم التقرب من أُمي عن قتله أيضًا، فكرتُ في شيء مخالف لكل ما سبق؛ لن أخشى إفشاء سرًا أو كذبةً لَا ليِّ دخلًا بها.

لهذا ابتسمتُ.

وما كان من السيدةِ زهراء الابتسام بتوسع هي كذلك بينما تنظر ليِّ بِبلاهةً، ضحكت على تعابيرها ونظرتُ حيْث يقف هو قائلةً بِسخريةً:

"أنتَ عبقريٌّ حقًا، كيف لكَ معرفتي بِتلك السرعة يا صغير؟".

صوت نباح الكلاب متوارثًا بِالعائلة تقريبًا، حيث صدر منه كذلك فغمغمت أنَا بِلا اهتمام :

"أنا هي بالفعل يا صغيري هيا أذهب وثرثر عني أمام أخلائكَ، عسى أحدهم يفكر في متى انتشروا الموتى الأحياء لِلتسكعُ بِالرياض".

- "بِلال .. قال ليِّ أن غيداء هُنا، أنت تقولين .. لا لا يمكن .. أنتِ لستِ هي، أأنتِ حبيـ .. أنتِ لستِ غيداء، غيداء ماتت !! ".

رفعتُ يديّ حيثُ كانت دقاتُ قلبي الهائجة، الثائرة، محاولةً تهدئتها ولكنها أَبت، حينها نظرتُ لِتلك الأعين مِن جديد؛ بعدما كنت قد فقدت الأمل فِي رؤيتها إلى الأبد.

- "أُسامة؟".

4 || مجددًا هو

ها قد وَقفتُ أمامه مِن جديد، حيثُ كُنت أَنتميَّ.

الهدوء يُحيط بيّ، لا أحد يجرؤ والتحدث، حتى أصوات الموسيقى الصاخبة تبدو وكأنها تَبددت، الأجواءِ مَشحونة بِالتُّوتر وَالِانتظار، مَن يبدأ بِالحديثِ أولًا؟

أنظر حولي في تَهربٌ، الظلالِ الطويلةُ تتلاشي فِي ضباب الأضواء المظلمة، أَشعر بِنسمة هواء باردة تُداعبني، تعبثُ بِشعري وكيانيّ ودواخليّ، أتنفسُ عميقًا عسى ألا تخرج تلِك الشهقةِ البكاءةِ منيٍّ وأنا أنظر له، مُجددًا.

- "غيداء، هيا الإفطار جاهز". صدح صوت فتاة من العدم، لينتشلني حيثما ذهبتُ بعيدًا، وعدت للواقع بشهقةً مُرتفعةً انطلقت مُعاكسةً لِالتي منعتها مِن الخروج قبلًا.

- "بسم الله عليكِ يا آنستي، هل تُعانينَ مِن كابوسًا ما، وجهكِ مُتعرق وبشرتكِ شاحبةً بِشدة!".

قطبتُ جبيني بعدم فهم، لم استساغ حديثها، فأنا كنتُ واقفة حيثُ هو، حيث السيدة زهراء وَبِلال الغليظ. أين أنا، ومن تلك؟

أيُعقل أن كُلَّ ما رأيتُ وهمًا، سرابًا من صنع عقلي البائس الذي مل وسئم جلوسه بين جدران العذاب تلِك دون سؤال صغير مِن عائلتي عني، بالتأكيد ليست تلك السويعات حلمًا، سَأفقدُ عقليّ إنَّ كانت كذلكَ.

نظرتُ لِلفتاة أستوضح ملامحها التي لم تَبدُ مألوفةً لي ولو قليلًا، وهذا يَثير فِي نفسي القلق والخوف، قرأتْ ملامحي فَهمهمت تَبتعد شاعرةً بهالتي الهلعة :

"لا تقلقي يا آنستي، أنا آمنةً العاملة بِالمنزل هُنا، منزل السيد المعتصم بِاللّٰه زوج السيدةُ زهراء".

أطلقتُ نَفسًا مُرتاحًا، أُجليّ حنجرتي مِن ظمأ نومي قائلةً لها :

"أيمكنكِ رُشدي حيثُ المرحاض لُطفًا؟ وَبعدها سأذهبُ لِمأدبةِ الفطور".

أومأت ليّ بِابتسامة استنكرتها قليلًا، تتنحى ليّ جانبا لكي أَتقدم وَترشدني هي مِن الجانب بشكل لائق، أحسست أنني سيدة القصرُ أو ما شابه.

ولكن لا شعوريًا ورغم عني، لم أستطع إلا التفكير في أحداثِ أمسُ، وكوني حَلمتُ بها مئاتِ المرات فِي سويعاتِ نومي القليلة، ابتداءٍ مِن خروجي من المأدبةِ، لِمقابلتي له.

ذلك الذي كان نقطة بدايةُ كل شيء، وأنا أخشىٰ أن يكون نهايتها كذلك.

وصلتُ لِلمرحاض الذي كان قريب مِن باب الغرفة التي لا أعلم كيف وصلتُ لها، كنت كالسكري أمس فلا أستطيع التذكر حقًا غير أن السيدة زهراء أصرت على مجيئي البيات عندها، ليلةً فقط ومع أنها تُريدني الإقامة أكثر، ولكن لدي كبرياء لم يسمح ليّ بالقبول أبدًّا .

عللتْ أنَّ أبي لن يَعرف كونه مُنشغل بِزوجته الجديدة التي تحتل المرتبة الثالثة الآن، ولكني متأكدةً أنَّ الخبر سَيصل له لا محال، لِكون منزل السيدة زهراء الذي ابتاعه لها والدي بعيد بشارع عن منزل العائلة، آي أنني لم أخطئ لِمنزلي بعد.

دلفتُ بثقلٌ أُدلك صادغي، الحِملُ ازداد عليّ بِشكل غير اعتياديٍّ، وحتى الآن لا أعلم أين سأذهب وإلى أين سَترسوا سفينتي، مِن أين المال وأين المنزل حيثُ سَأسكن، لا أعلم.

ولكن رؤيته البارحة، ذلك الشخص الذي يعني لي شيء بشكلًا ما، لم تكن كما تخيلت، كنتُ أأمل كون تلك الهالة حولنا تكون نفسها كالماضي، ولكني رأيتها سوداء، رمادية، بشعةً، مُقلقة فقط.

ليست كما أحببت أبدًا.

انتهيتُ بِسرعة، أحرص على ألا أتأخر كي لا أظهر قليلةُ الاحترام ولو لِقدر ضئيل، حتى لا أُتيح الفرصة للهمز واللمز، أُذكر نفسي دائمًا أنني غير مرغوبٌ بي، لا هُنا، ولا عَند عائلتي.

أقتربت من المقبض لكي أديره، ولكن وصلتني الهمساتِ الخافتة وراء الباب، أستنكرت الوضع حيثُ كانت أصوات إناث يثرثرن معًا وأُذني ألتقطت أسمى في جزء مِن حديثهن.

اسرعتُ أَمسك عبوة الأوراق المجففة، كانت دائرية الشكل مثقوبة من جهتيّ الرأس، وكانت كفيلة لتركيز السمع على ما وراء الباب الخشبي.

وضعتها خلف أذني ليصلني الصوت بِوشوشة خفيفة ولكنه وصل فِي كل الأحوال.

- "إنها قذرةً مَلعونةً، تقولين تحاول إختطاف خطيب السيدة غنى، أُسامة نفسه؟". قالت الأولي بطبقات صوت مُرتفعة متفاجأة، لِتصمتها الأخرى بصوت ضربةً وهي تهمس لها قائلة:

"لا ترفعي صوتكِ حتى لا تسمعنا، مَن يعرف تلك المُحتالة خريجة المأدبة ماذا تفعل، لقد استمعتُ للسيدة زهراء تتحدث مُتعجبة مع قمر عن كونها- تِلْك اللعينة- تعرف أُسامة وهو يعرفها كذلك".

- "هل قالت السيدة زهراء عنها 'تِلْك اللعينة'؟".

- "لَا". قالت لها الأخرى بسرعة، فانتظمت دقات قلبي قليلًا، على الاقل لم تقل عليّ لعينة.

وعلى كل حال تابعتْ قائلة:

"لكن لا يُمانع أنها لعينة قليلة الحياء، مَن يعرف أيضا لماذا دخلت المأدبةِ، بِالتأكيد فعلت فعلةً شنيعة جعلت والدتها لا تقبل بها وتلقيها للسيدة زهراء حنونةِ القلب العطوف".

- "هي حقًا خبيثةً أوافقك، ألا تعرف أنَّ موعد ملكتهما سيحدد عما قريب، أنهما الثنائي المثاليُّ وهي شحاذةِ المأدبةِ".

لم يكن لدي وقتٍ للنواح لأن خادمتين رأوا أنني خبيثة أُختطف زوج سيدتهم المستقبلي، لانهن لا يعلمن ولن يعلمن عن كونه كان خطيبي أنا قبلًا.

هه، سخريةِ العائلة مني كبيرة وواسعة، فإن كان هذا موقفهم معي فلا بأس بموقف الخادمات الذين يتاقضون مِن أموال أبي، لا بأسٌ مَن يهتم أيضًا لِخريجة المأدبة الخبيثة تِلك، ولا شك في أنَّ كل فعل سيئ وقح مُتوقع منها.

لهذا ابتسمتُ.

أنا هي يا رفاق، خريجةُ المأدبة.

فتحتُ الباب بِقوة وقسوة، لم اهتم للمتاعب بعدها أنا في منزل أبي أليس كذلك؟ أي منزلي أيضًا؟

شهقتا معًا، وابتسامتي التي شككتُ كونها مختلة فعلًا لم تسقط عن فمي، نظرت لهما بهدوء، أبعد أفكار العنف عن رأسي الذي يضج بالكثير منها بِالفعل، ثم قلت بلا مبالاة إلى الخادمة التي أيقظتني سابقًا لا أذكر اسمها على أيةِ حال :

"أين قاعةِ الإفطار؟".

ابتلعتْ لُعبها بطمئنينة تنظر للأرض مثل زميلتها، كونها فهمت أنني لم أسمع شيء مما قالتا، أظهرتُ وكأني لا أهتم في حين كانت عيناي تخترق كلتهما بشكل تفصيلي دقيق.

قلتُ لكم مِن قبل أنني خريجة جامعة عالمية في بريطانيا، وفي حارات لندن درستُ، ولكني لم أذكر قبلًا دراستي للعلم النفسي والاجتماعي، رغمًا عن كوني تخرجت سابقا مِن كلية الطب النفسيِّ بِالمملكةِ السُّعودية.

كنتُ والعةً بتِلْك الدراساتِ.

أيِّ أنني مُحللةً نفسيةً هُنا يارفاق، كُتيبٌ مُتنقل لِفنون الاجتماع، قراءةُ النفس بِكل شفافية.

أتمنى أنَّ تتذكرون.

فِي طريقي للمائدة، إضافةً لأني كنتُ أراقبهما فَكّرتُ، عادةً فِي عوائلنا السعودية أو الخليجية عامةً، يكون هناك إتفاقية بين العائلة وجذورها، مِن الصغر تَكون.

فَمثلًا، تقول أم فلان أنا أُريد خطبة فلانة بنت فلانًا لابني فُلان، وهذا يَتم مِن قِبل بلوغ أحد الفلانيين أساسًا.

أيِّ أنها عادة، كل مِن بالعائلة يخطبون بعضهم البعض، كي توارث دماء نقية بها ليست لعائلة خارجية.

وكان هذا قانونًا أنشأه جديّ الأكبر عُثمان، ولا أدري كونه قد أنشأ بعصر الجاهلية أم ماذا، ولكن لا يُستبعد فعلًا فيقال أنه بآخر أيامه ذهب إلى بدو مِصر كي يقابل صديقًا هناك ولم يعد من بعدها.

بعيدًا عن كون الفكرةِ مرضيةً، لِتوارث الأمراض وتخالط الدماء والعروق بشكل ليس صحيا أبدًا، إلا أن المدعوين بِخطبتهما، كفلان وفلانة تبدأ مشاعرهم مِن قبل النضوج بالميل نحو بعضهم، تُبنَي الأحلامِ وَالأماني حد السماء عِند أحد الأطراف أو كليهما، وفي النهاية يكون زواج أحدهم مِن شخص غير الذي خُطب له في الصغر هو شيء سيئ وإثم كبير على من يفعل هذا.

ومِن القصيدة التي فوقي عرفتم فعلًا ما حدث معي؛ أنا خُطِبت إلى أُسامة، ولكنني مُت- في نظرهم- وبعد مرور سنوات وظهور غنىٰ التي كانت تُشكل بديلًا ليّ بِالفعل، كانت خِطبتها لابن عمي وابن عمها - هو يكون شقيق بلال الأكبر- كذلك لهو شيء عادي، مُتناسيين شخصا آخر.

إلا وهو أنا، غيداء المِيتة.

ولكن بِلا شك، الخطأ ليس يقع فقط على عائلتي المرموقة، هم لم يكبلوه إلى القبو، وإنّ لم يقبل بخطبة غنىٰ يقتلونه أو يمنعوا عنه الإرث، هو إنسان عاقل أعتقدني مُت فقط، لِيقرر إكمال حياته، وهذا هو الطبيعي بالفعل.

لكنه نسي، شيء آخر أهم، ليس مشكلتنا الآن؛ لأننا وصلنا أمام مُنعطف نحن الثلاثة، كانت الخادمة التي لم أرها سابقًا ولم أسمع سوى صوتها في طريقها لأخذ منحنى غير طريقنا، لذا؛ أمسكتُ ذراعها استوقفها، وأَحكم قبضتي بقوة.

نظرتْ ليّ بِدهشة وتعابير قلقةً استطعتُ رؤيتها بِوضوح، ابتسمتُ لها ابتسامتي المختلة تلك قائلةً :

"أُريد منكِ المجيء وإيصالي معها، إنّ سمحت".

تعابيرها تغيرت إلى شكٍ غبيٌّ بِنظري، وثُم تبدلت لِخوف، رأيت الاضطراب الكبير في نفسها، قدمها تصلبت وتشبثت بالأرض تشبثًا، فلم أعرها أهتمامًا وأنا أسحبها إليّ، بجانبي نسير معًا.

وصلنا بسرعة إلى القاعة التي اجتمعت بها الفتيات مع السيدة زهراء، كُنَّ يأكلن والبسمات على أوجهِ الجميع، ولكنهن توقفن ما أنا لمحونيّ، سرعان ما انطلقت ابتسامة السيدة وقمر من جديد، بينما الشقيقتان الأخيرات رموني بنظرات حارقة عائدات للطعام، والحديث والهمس فيما بينهم يندلع.

- "هيا يا بُنيتي ماذا تنتظرين عندك؟". قالت السيدة زهراء مُبتسمة ببشاشتها، فابتسمتُ كذلك متراجعة عن الفكرة أو الخطة التي خطرت في عقلي سابقًا بوجود الأختين هاتان.

ولكن كان أمرًا ضروري، ما فعلته أمامهن، علهن لا يأخذوا فكرة كوني خرقاء، لم أفهم مقصدهن بتلك الفعلة.

نظرتُ إلى الخادمتان ورائي، كانتا تريدان الفرار، ولكني رمقتهما بهدوء أعطي ظهري إلى من ورائي يجلسن على المائدة.

- "الغيبةِ والنميمةِ، فعل غير لائق، فعل سيئ قالوا لنا في المأدبةِ عنه، مصير قائله الفناء في جهنم وجحيمها، فما بالكن بلعن أختكن المسلمة والنميمة والغيبة عنها؟ والمسلم لا بِلاعن ولا بطاعن".

أخفتضا رأسيهما، ولكني لم يعد لدي حيل للنقاش أو الانتقام كثيرًا، فقلت ناهيةُ النِقاش :

"لقد كان خطيبي قبل البلوغ حتى، ولكنه الآن لا شيء لذا؛ وفروا تلك السيئات لشيء يستحق ولو قليلًا".

اتجهتُ إلى المائدة، راميةً صدمة ورائي عليهن، ولم اهتم لملامح الدهشة الغريبة على وجه السيدة زهراء ولا قمر، بينما كانت غنىٰ ترمقني بِشكٍ قائلة :

"عن مَن تتحدثين؟ مَن كان خطيبكِ قبل البلوغ ولم يبقى؟ أتعلمين أنه أمرٌ مُحرم علينا هُنا ترك مَن نخطبهم، كيف يمكنه حتى!".

- "لا تهتمي بأمور ليست من شأنكِ". قلتُ، ألتقط طبق البيض أخذة أحد البيضات المتألقةِ به، متجاهلة الاحتراق الذي يصدر مِن نظراتها لي.

***

لم أستطع التخلص من السيدة زهراء.

أحتجزتني بالمنزل، الخروج مُنِع عني إلى أشعارًا آخر.

وقد أعطتني هاتفًا وكانت غير قابلة لِعدم قبولي أياه، وعللت أنه من أموال أبي على كل حال ووجوب أمر وجود هاتف معيّ، كي أستطيع التواصل معها فيما بعد بِشكل أفضل.

هي فعلت ما لم تفعله أمي حتى، كانت قد أبدلت مبدأ زوجة الأب الشريرةِ والخبيثةِ لدي.

والآن الساعة الثانية عشرة ليلًا بِتوقيت بلدي الحبيب، أتسطح على فراش الغرفة ذاتها وأنا لا زالت لا أعلم كيف وصلت لها بالأمس. كنتُ أَراقب سقفِ فراشي حيثُ رُسِمت بعض النجوم اللامعة، بِشكل لطيف خيلُّت ليّ انها نجوم السماء، متألقةً في زيها المميز بعيدًا عن أشعة الشمس التي تَطمسها.

الرياح مِن النافذة القريبة المُطلة على حديقة المنزل داعبتني، أرسلت ليّ شعورٌ منعشٌ بِالحريةِ التي فقدتها لِسنوات وسنوات، جعلتني امرأةً أُخرى، امرأة لم أعرفها فِي صغرها ومُراهقتها وحتى يومي هذا لا أعرفها فِي شبابها.

كنتُ مُحتجزة وسجينة داخل صومعة نفسية صعب التحرر منها، فحتى أن خرجت من المركز كانت روحي لا تزال مقيدة هناك ...

روحي المُنتعشة الفكاهية والاستكشافية، كانت هناك مقيدةً، لم أسترجعها فِي مكتب تسليم الأمانات، لكونها شيئا غير ماديٍّ.

ودوامةُ المشاعر التي خالجتني جعلتني بِبطء أعتدل فِي فراشي، مُستمتعةً بِالرياح الهادئةِ من النافذة، وشفتاي تحركتا على نغمٌ موسيقى، من غناء الشيخ إمام المصريُّ، اعتدتُ الحانه سابقًا مع كل ممن احب :

" أنا اتوب عن حبكَ أنا ؟

أنا ليّ في بعادك هَنا ؟

كَيف، أنا أترجاكَ

الله يجزَاك

يا شاغلنّي معاك

وشاغلني عليكَ ".

سمعتُ صوتًا، يُغني معيّ، بِنفس اللحنِ ولا يبدو أنه لا يعرفه، كان الصوت يصدح بِالحديقة وعلوه جعلني أحتار في مُنتصف كلماتي مجددًا :

" أنا لا زال أنا .. ".

-"وإنِّ غَبتَ سنةٍ"

-"وإنِّ غَبتَ سنةٍ

أنا لا زال أنا

لًا قادرًا على نسيانكَ

ولا ليَّ غنىٰ

ولا أنا بتائبًا عن حبكَ أنا".

الصوت يَتردد بِقوة، تَوتريّ لا يجعلني أعي كونه مألوفًا أو لا، لكني قررتُ الدخول فِي تِلْك الحالة أَتابع كلماتِ الأغنيةُ، والتردد يَصدح كأنني أقف خلف بئرٌ عميق أُنشّدّ، والصوت المُتردد ليس ليّ حتى :

" وَإنِّ كان أَملُ العاشقيين القُرب

أنا أملُي فِي حبكَ هو الحُب

وَإنِّ غَبتُ سنةٍ

أنا لا ازالُ أنا

لًا قادرًا على نسيانكَ

ولًا ليَّ غنىٰ

وَلا أنا بتائبًا عن حبكَ أنا ".

وَمعًا فِي نفسٌ واحدًا قُلنا، لِيعرتي قلبي قشعريرةً غريبة، وبرودةً عندما أيقنتُ انه هو، من يردد اللحن معيِّ.

مِن جديد هو، أُسامة.

5 || الحياة غير عادلة

هل تذكرون عندما قال بلال لي إنَّ السيارة بنفسها نجِت مِن الحادث، وغيداء لا، أيِّ أنا.

كان يَقصد كُل حرف تفوه به، فلاحقًا اكتشفتُ صدقه، والمعاني المختلفة وراء حديثه.

بدايةً من هروعي إلى النافذة كي أرى أُسامة ولا أجد له أثرًا، إلى لحظتي تلك واقفة أمام السيارة مُتصنمةً بِذهول مِما آلت إليه أُمورها.

السيدة زهراء أخبرتني أنها أمرت العامل بأخذِ سيارتي من المرآبُ-موقفِ السَّيَّارت - الخاصِ بِالعائلة، أتى بها ورأيتُ عزيزتي التي لم أرها منذ خمسِ سنواتٍ كاملة.

كانت بِلونها الأبيض الناصع، وليست ناصعة بل صُبِغت بِاصماغٍ حمراء، صُمِغت بالدماء.

ومِن المفترض أنه مُدعٍ أنَّ تلك الدماء تعود ليِّ أنا.

رعشةً غريبة اجتاحتني، والشعور بالاشمئزاز والإعياء حاوطوني عِند رؤيتي لها.

مهما كان إثمي أو ذنبي أو أيًا يكون، ليْس مِن حقهِم فعلا هذا، ليْس مِن حق والديَّ فعل هذا بي.

وببساطة، بكيتُ.

ولم أتذكر المرةِ الأخيرة التي بكيتُ بها، كانت قبل خمسِ سنوات أيضًا، في اليوم الأول ليَّ بِذاك المركز، ولكني بعدها تعاهدت على ألا أبكي مُجددًا وأصبح تلك المرأة القوية الصلبة الحديدية.

ولكني بكيتُ، بكيتُ بِشهقاتٍ مُرتفعة، أجثو على الأرض أمام سيارتي الملوثة بالدماء، وكل شهقةً تخرج مني أشعر وكأن شيئًا ما داخلي ينقطع، إلى الأبد.

الحمد لله كوني في خَلفية المنزل حيْث لا أحد يسمع صوت شهقاتي، لا أحد يَسمع لعناتي على والديَّ، لا أحد يَرى ضعفي.

ولكني كنت متأخرةً بِظني هذا، حيْث كانت تقف هُناك، لا أستطيع استبانةِ تعابيرها، ولكني عَرفتُها شكلًا على الرغم من أنَّي لم أعرفها اسمًا بعد.

سخرتُ فِي نفسي على وضعي، ها أنَا في اليوم التالي ليِّ هُنا، أمام تِلك الفتاة المراهقة التي لا شك أنها تكرهني، والآن تحديدًا مع الذكريات المتدفقة في عقلي برؤيةِ السيَّارة التي أعتدتُ رؤيتها بأفضل حِلتها، لم أكُن بحالة جيدةً لِسماع الذمُ أو حتى رؤية تعابير أمقتها أكثر ... الشفقةِ.

وقفتُ بِوهان، أترنح يمنة ويسرة، وما كدتُ أن أسقط حقًا على يساري، حتى وجدت نفسي مستندةً على ذراعيها أعتدلُ في وقفتي وانظر لها بِلا تعابير.

ثلاثون عامًا وتبكين أمامِ مراهقة يمكن أن تكون لم تكمل الثامنة عشرةِ حتى، يال العار عليكِ يا غيداء، أنتِ لستِ ناضجةً أنتِ طفلةً.

وبخت نفسي.

وبختها بشدة، شهقاتي تخافضت وهي لا تزال تنظر ليِّ دون تعابير مُحددة مقروءة على وجهها -الذي كان حقٌ جميل، مثل وجهي- ، مما جعلني ولمرتي الأولى أفشل في قراءة ِأحدهم.

- "اسمي مريم".

نظرتُ لها بِتعجب، قد اتسعت حدقتاي بالفعل.

مِن بين كل كلماتِ العالم، اختارت هاتين؟ اسمها بِحق الله.

قررتِ التجاهل والذهاب بعيدًا لأختلي بنفسي مجددًا في تلك الغرفة بالأعلى، ولكن ما أن مررتُ بجانبها حتى َأمسكتْ ذراعي تستوقفني، ذكرتني بفعلتي مع الخادمة قبلًا، عقدتُ حاجباي ونظرت لها بِاستفسار، فقالت ببسمة هادئة بِشكل مُريب :

- "المظاهر خداعةً للغاية، جدّ خادعة؛ فأنا جِئتُ لِنصحكِ وحسب، أنَّ كُنتي طبيبة نفسية سابقًا وخبيرةً في أمور عِلم النفسِ لَا يعني أنكِ بِالقادرةُ على قراءة كُلَّ شيء حولكِ، أنتِ لستي ساحرةً بِالنهاية".

كنتُ لا أزال أنظُر لها بِاتساع حدقتاي، ولا شك أنَّ فمي سقطَ ونسيتُ رفعه، فَفعلتُ سريعًا أُراقبها ترجع حيث أتت.

كلامها لم يترك عقلي وشأنه، تعرف أنني طبيبة تعرف ماضيّ في عائلة أنا فيها ميتةً، ولا أعتقد لِواحدٍ بِالمئة كون عائلتنا الكبيرة تتذكرني وتتحدث عن سيرتي الحسنةِ قبل موتي أو ما شابه.

لكنه احتمال وارد، أنا شقيقتها مِن الأب ومن الممكن كون لديها فضول يحوم حولي، فمن لا يريد معرفة أشقائه؟

لكن الأمر ليْس هكذا وحسب، بل الخادمتان بالأمس حديثهم استنكرني أكثر، مِن أين لهم معرفة كوني خريجة المأدبة، وكون أهلي أدعو موتي، لا يمكن أن يذكر أمر مثل هذا أبدًّا لَا هُنا ولَا في بيتِ العائلةِ الكبير، هُناك شيءٍ أكبر من التنصت على السيدة زهراء مع قمرٌ، إضافةً لكونهما تحدثتان أمام باب المرحاض كي أسمع عمدًا، ولا شك لديَّ أنَّ حديثهما كان شيءِ مِن أمر أحدٍ هُنا كي أتحرك غاضبةً تبعًا لِكون سلوكي سيئ بِالفعل.

لإثبات أنني أستحقها، أَستحقِ الخمسِ سنوات الذين راحوا من عمري هباءٍ، ولا شيء أضاف ليِّ بِهم سوي الضعف والهوان.

غِنىٰ فعلت ذلك يا ترى؟ أمرت الخادمتان بِالتحدث عن عِمد أمامي؟ لأتشعلُ وَأخرج بهما غضبي!

ولكن لَا، هي لَا تعلم حتى امر خِطبتي بِخطيبها، وحديثها العفوي على المائدة يؤكد ذلك بقوة.

ولكن يظل هناك احتمال وارد بِكونها قالت هذا كي تذهب الأنظار عنها فقط لَا أكثر.

رأسي أنفجر من الأفكار والتحليلات، ولكونه لم يعتد على هذه الإثارة منذ سنوات، فهو بدأ في آلامي حقًا.

تجاهلتُه أُفكر، الشيء الوحيد الذي فهمته من الأمر بِرمتهِ أنني أوقعتُ نفسي في جحر الذئاب، وأنَا أؤكد أنني أصبحتُ الفريسةِ التي وقعت بِالمصيدة.

***

بيتٍ لِيْس بيتي، أَشخَاصٍ لَا يُحبُّونني، عائِلَةً مُتَفككةً وألاعيب تُحِيك وَراء ظهري ألَيْس هذا مُرهق وكثير عليَّ ؟

بعدمَا ذهبتُ مِن الفناء حَيْث السَّيارة المُدماةِ إِلى البيت، كانت الأجواء هادئةً، بِشَكل أقلقَني، لَا بل أقلقَني كثيرًا.

كَلَام مَريم تَردَّد فِي عقلي مِئة مرة، المظاهر خادِعةً، خادِعة ومَا هِي بالمظاهر تَقصِد ؟

البيتُ والثَّراء !!

تصرُّفَات الجميع مَعيّ

أُمٌّ الأشخاص نفسهم هُنَا ؟

الاحتمال الأخير، هو الأقرب لِلْحقيقة بِالنسبةِ ليِّ، ولكن بِالنِّهاية لا شَخصٍ يدعو لِلشَّكِّ والرِّيبة فِي كُلِّ المنزل غير مريم وغنىٰ مع الخادمات بِالطَّبع .

غير ذلِك فَهو لا .

ولكنِّي أَشعُر بِكوني أُسيء الظَّن بِمن اِستقبلونيِّ في بيتهِم، ومع هذه الفكرة نفضتُ عن رَأسِي جميع الأفكار اَلأُخرى وأنَا أَمشي بِهدوء إِلى غُرفة المعيشة حَيث كان الجمِيع مُتواجدين .

جلتُ بعينيّ أَلقَى نَظرة شَامِلة عليهنِّ، كُنَّ جالساتٍ حول بعضهِن على الأريكة الدَّائريَّة بِالمنتصف، غنىٰ وقمرٍ يُّتابعنَ شيئًا ما في التلفاز الضخم على الحائط والسيدة زهراء تتفحص هاتفها صاحب إصدار السنة- لا تسألونني كيف علمت، إنه فهو نفس شعار خاصتي ولكنه الأَحدثُ بِالتأكيد-، ومَريم لم تكُن متواجدةً هُنا، نظرتُ نظرةً مُتحققة أُخرَى ولكنها لم تكن بِالجوار أيضًا.

تنهدتُ وألقيتُ السلامِ، ردَّدْن جميعًا عَلِي ولم يُخْف عَنِّي هَمهمَة غِنىٰ المُنخفضة والعقدةِ بين حاجباي قمر بينما تتابع التلفاز، كانت مُشابهةً أيضًا إلى تِلك التي تكونت بِجبين السيدة زهراء.

نظرتُ بِتعجب لهُن، ولكني لَم أشأ التحدُّث بِشيء، ليس الآن فأنا أشعر بوجود خَطب ما، خاصةً بِغِنىٰ ذاتِ الحركات المُتوترة، أَشعُر بِثابتهَا المُزعزعِ عِندما دخلتُ الغرفة وَلكنها في نَفسِ الوقت تُحاول أخفاء هذا .

ولكن خطبها لن يَكون أكبر من الخطب الذي حدث في سيارتي المسكينة.

لهذا تنهدت بِصوتٍ مسموع عَن عِمد، نظرت ليِّ السيدة زهراء مِن طرف عويناتها، ولَحظت ابتسامتها البشوشة على ثغرها تبدأ بالظهور، لا يزال هناك خطب أنَا مُتأكدة.

- "هل كُلَّ شيءٍ على ما يرام عزيزتي، هل أحدًا هُنا قام بِإزعاجكِ؟".

نفيتُ بِرأسي مُسرعة، لِتتسع ابتسامتها أكثر عن ذي قبل وتلحظ- تنظُر بِجانب أذنها- إلى غنىٰ، وفهمتها على الفور، كانت تقصد هل غنىٰ أزعجتك بالتحديد، ولكني مجددًا نفيتُ، ثُمَّ نظرتُ إلى الأرض بِشرودٍ لثواني قبل أن أقول :

"هل .. أ ... هُناكَ أمرٍ يؤرقنيِّ".

تَراجعتُ عَن سؤالي الذي كُنت أُريد طرحه في البداية، ودخلت بِسرعة إلى الأخر، كنتُ أُريد سؤالها إنِّ كان أُسامة كان هنا بالأمس فعلًا أم أنني كُنت أتوهم صوته، الذي افتقدته منذ المرة الأخيرة بِزواج أبي، لكني رأيت أنَّ هذا سيكون غير لائق، أبدًا.

رأيتها ترمقني بِتعجُّب، وحثتني بِعينيها على الحديث، فقلتُ على الفور :

"السيَّارة خاصتي، لا أدري وَلكن ... لكنها مليئة بِالدماء، التي طُمسِت معالمها كلها، دماءٍ حقيقة جَافَّة ... أتساءل أليست قد خضعت للصيانة والتنظيف وما شابه".

- "آوه". قالت وأعينها اتسعتْ بِشكلٌ كبيرٌ، نَظرتُ لها بِلهفةٍ، علَها تقول شيء يَبعُد عنِّي ظُنوني البائسة تلك بِعائلتي، نظرتَا الحُزن والشَّفقة هاتان اللَّتَان رأيْتهمَا في أَعينها مِن قبل، جعلوني أَتنهد لِلمرَّةِ التي لا أَعلم عَددُها، بينما تقول بِاهتمام :

"هل نتحدث هُنا، أم تحبي الذهابُ لِمكانٍ ما، بِمفردنا". أنهيتْ حديثها واستمعنا إلى ضحكة غِنىٰ الصاخبة، كانت تسترقُ السَمع تلْك اللعينة.

نظرتُ لهَا بِحدة، ووالدتها كذلك، ولكنها بسرعة قامت من على الأريكة والبسمة الساخرة لم تترك ثغرها، ثُمَّ قالت بجهورية إلى قمر التي بدت ليَّ تُتابع التلفاز بِانتباهٍ كبيرٍ، حتى أنها لم تعي دخولي :

"هيا يا فنانةِ العائلة المُستقبلية، هل ستبقين هُنا أم تأتي لفرقة البؤساء معيِّ ؟".

نظرتْ لها قمرٌ بِبلاهة، ثُمَّ سرعان ما تحولت نظرتها إلى الغضب وهي تحركها بعيد عن شاشة التلفاز، ولكن غِنىٰ لم تريد التَزحزحُ عن مكانها، ولهذا تدخلتُ أَنَا.

ما بها تِلك الشمطاء، لَتتحدث بِاحترام أو لَا، كما أنها مزعجةً بِحق، وبِشكلٌ خاص تُزعجني.

- "يمكنكِ الذهاب إنِّ ارادتي وإنِّ لم تُريدين فلتجلسي وَتتركي الفتاة .. بِشانئها الخاص، وليْس سُخريتكِ".

قلتُ، أقف أمام قمرٌ حاجبة غِنىٰ عنها، وكذلك غِنىٰ حجبتُ عنها قمرٌ، ورفعت ليَّ هي حاجبيها بِسخرية مُجددًا، قائلةً :

"لكن مَن أنتِ لتدافعي عنها ؟، إنها شقيقتي أنا الفنانة قمرِ الدين فلا لكِ بالتدخل بين شؤون الأخوةِ ".

-" أنا وكما تعلمين، شقيقتكُنَ فـ... ".

-"شقيقةِ مَن !؟، أُمي أسمعي تِلْك الدُعابة السيئة، أنتِ لستِ شقيقتي، لستِ سوي شقيقة مَريم الغبية وقمرِ المُمثلة المُدهشة، حتى أنا أنخدعُ بِها بعضِ الأحيان".

دَهشتُ قليلًا لأني كنتُ أتحدث بِحماسٍ لكني كنتُ أعلم، ذلك اليوم عندما رأيت همساتِ عمتي جواهر خلسةً وَعينيها متعلقتان على غِنىٰ جعلتني أعلم، هي لن تقوم بِالنميمة والسخرية على ابنة شقيقها، كما وإنِّ عُمر غنىٰ قريبٌ مِن عِمري، لا تصغرني إلا بِبضع سنواتٍ- أُحاول الحفاظ على ماء وجهي بِما إنها خطيبةِ أُسامة- فلا يمكن كون والدي متزوج على أِمي مُنذ هذا الحين إلا وكانت كارثةً عُظمى.

ولكنها تعتبر تربت على يد والدي، فتقديرًا عُمر مريم ثامنيةِ عشرِ عامًا، أيِّ والدي يعيش معهم مُنذ ثمانيةً عشر عامًا، شعرتُ بِالغيرة منها.

وللمرةِ الأولى قررتُ أن أكون حقيرة، كان هناك شياطين صغيرة تَعبثُ بًعقلي، تُحثني على إتباع خطى تعلمتها في سنواتي الخمسِ الماضية معها، ولا أدرى إن كان الدافع هو الغيرة مِن الطفلة الصغيرة داخلي أم أنَّه شيْءٌ آخرُ، قُلت:

"حسنًا يا يتيمةِ الأب، تنحي جانبًا بعيدًا عن شقيقتي".

لا أعلم أيضًا، لماذا اخترتُ هذا اللّقب فقط، هناك احتمالُ كونِ والدها على قَيد الحياة، ولكن ليْس أبي مَن يتزوج امرأةً مُطلّقةً- ليْست عُنصريّةً، ولكنّي أعلم أبي- .

بعد استماعي لِشهقات السيدةِ زهراء وقمرٌ عملتُ كوني أصبتُ، عيني لم تتركا عينيها التي اغروْرِقت بِالدُّموعِ، مشهِدها هذا وَحركةُ جسدِها الّتي تدُلُّ كوْنُها تُريدُ البُكاء. جعلوا ثباتي النفسيُّ يَتزعزع، وأعلم كوني أخطأت وبشدة.

لكنها وبِبساطة لم تبكِ، قالت بِثقةً وشموخ تِلك مرتي الأولى التي رأيتهم بأحد، أعجبتُ بالطريقة التي تحدثت بها على الرغم من كوني لم أعجب بِكلامها :

"الأب الميت أفضل مئةِ مرة مِن أم وأب لا يريدونني في حياتهم، بل ويدعون موتي".

اقتربتْ أكثر تَبث حديثها المُسمم داخلي، وأنفاسها الساخنة تلفح وجهي:

"لا وبل أشيعوا ليِّ جنازةً بِتابوتٍ فارغ قائلين أنه به بقايا ابنتهم، التي ماتت في ذلك الحادث الأليم".

- "أنتِ كاذبةً". أحاول إقناع نفسي بدلًا مِن شجاري معهَا قُلت بِصوتٍ مُرتفع الحشرجةِ به واضحةً عن كون رغبتي في البُكاء، ابتلعتُ غُصتي بِصعوبةً أستمع إلى ضحكاتها الساخرة.

-" أنتِ مثيرة الشفقة أكثرُ منيِّ حتى".

الهواء تقلص من حولي، لم أتوقع كونهم هكذا لِتلك الدرجة، كل شيء، كل شيء نفذوه حتى تُحيك التمثيلية كاملةً، ولم يستعيبوا كون ممكن أن أعود لهم من جديد، في يوم مِن الأيام.

كنتُ أريد الخروج، ليس من الغرفة التي أصبحت وكأنها تقبض على أنفاسي، لا بل من العالم كله، من الحياة. وللتو فقط فهمت معنى جملة أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني، وأحسستها فعليًا.

قَدمتُ على الخروج، العالم أصبح مشوش حولي كثيرًا، والصداع ازداد أكثر عن ذي قبل، كان سيئ ولكنها لم تتركني وشأني، تمنيتُ لو أنني احتفظت بحقارتي لنفسي قليلا، ولكني مثيرة للشفقة أكثر منها وهي أثبتت ليّ أنها أكثر حقارة.

منعتني يديها، وهي تبتسم بتوسع أكبر، لمحت رجفة الخوف في عينيها ولكنها بكل حال تابعت قائلةً بِحقد :

"من سنتين، سنتين اثنتان فقط جاءوا لطلب يدي، وكان من جاء هي عائلة الشاب الذي أحببت منذ خطت قدمي إلى أرضكم، أغمض شخص رأيته بحياتي والشخص الوحيد الذي أوقعني في شباكه.

لم أتخيل، أن ذلك الثرثار الذي يتحدث دون توقف لديه شيء يخفيه، هو دوما لديه شيء يخفيه، يجعلني أكتشفه ببطء، ببطء يفتك بي وبقلبي كل يوم عن سابقه، يغيب أيام كثر دون رسائل أو اتصالات أو حتى أخباري، كان في كل فترة يذهب ولا يعود إلا حينما يبغى ويريد ...".

نظرت لها، كانت ترتجف في حديثها بقوة خفت أن تكون قوتها من الحقد، الحقد خطير عليها وهي ليست حقودة. عينيها زائغة ونظراتي أنا ضاعت معها، الدوار بدأ في الانخفاض شيء فشيء، وبالتأكيد هذا من أثر اهتمامي الشديد بحديثها الذي جعلني أنسى أمر تشيع جنازة لي، والتركيز في كلامها عنه... أُسامة.

- "والبارحة، إحذري ماذا؟ أمسكته بالجرم المتلبس أسفل نافذتك يدندن شيء ما، سألته ما تفعل هنا قال لي أنه جاء ليراني فقط، وهذا كل شيء.

لكني لم أصمت بعدها، ذهبت في الصباح لمنزله، وللمرة الأولى من سنتين أتجرأ وأدلف إلى غرفته عندما كان بالعمل.

ووجدتكِ أنتِ بها!!

وجدت صورًا كثيرة مبعثرة عنها وهناك لكم معًا، ووجدت رسائل وقصائد ذكر بها اسمك، وجدت بعضا منها حزين زين كلامته الدموع، ودفتر مذكرات عنوانه أن حبيبته ماتت، أنه يختلي بنفسه في كل حين وآخر للبكاء عند شاهد قربها، كتب أنه تحطم عندما علم أن ما تبقى منها أشلاء لا أكثر

قال أنه السبب في موت حبيبته.

لِمَ لم تموتي؟ بِربك لِمَ".

بكت بكاءً مريرً قطع أوصال قلبي، لم أكن في حالة تسمح لي بالتفكير فأخذتها إلى حضني بقوة، أبعدها عن السيدة زهراء التي هرولت لنا، وكتمت شهقاتها في ذراعي تشدد على عناقي أكثر.

حاولتُ كبح دموعي والتماسك، ولكني لم أستطع فتركتها تزين وجنتاي، الدنيا سيئة، سيئة وغير عادلة أبدًا.

وهذا آخر ما فكرت بعدما أحسست بثقل غريب على كتفي، تبعه سقوطي أرضًا بسبب دفع جسد غنىٰ لي، تهاوي جسدها عليّ فَشهقتُ وصرختْ السيدة زهراء.

الحياة لم تكن عادلة مع غنىٰ، ولا معي ولا حتى مع أُسامة .

6 || توأم روحي

الحُب لِلحبيبةِ الأُولى ... هذا ما قَاله، قَبل أن يهرول إلى الخارج القاعة، قالها بَعد حديثه المتوتِّر والمدهوش، رمقني بِلال بازدراءٍ وذهب خَلف أخيه رَكضًا.

كُنت في حالةً مِن اللّاوعي حينها، أَسمعُ حديث السيدة زهراء بِجانبي ولا أعيرها أدنى أهتمامًا، كان جسدي معها ولكن عقلي ذهب وراءه مهرولًا، والجملة الوحيدة التي سمعتها من السيدة زهراء كانت عندما حدثتني بِقلقٍ تُربتُ على كتفي:

"هل أنتِ بخير بنيتي؟ هل تعرفينه؟ بالتأكيد تعرفين أُسامة إنه ابن عمك بكل الأحوال، يكون خطيب غنى أيضًا".

وكان حديثها، هو التَّأْكيد، الذي جعلني أذهب بعيدًا إلى اللاشيء وينتهي بي الحال في سيارة غنى مرة أخرى، ولكن تلك المرة كضيفة في منزلهم وليس بزفاف أَبي.

قبل أن أذهب للسيَّارة رأيتُ أُمي، كنت أُريد الاطمئنان عليها كَوَّن بِلال قال إنها كانت تبكي، ولكني لَم أقدر كنت مُجَمدَة الأطراف وبارِدة كَبرود الموت.

رؤيته مِن جديد، جعلت كل الذكريات قبل سجني تعود ليِّ، كل شيء شعرتُ به وقتها، آخر مرَّة التقينا بها، بسمته بوجهي وتَحطُم قلبي، الذي أسمع صوته الآن يتحطم مرةً أُخرى.

اليوم ها أنا أعلم كونه يظنني ميتة، سمعت حديثًا من غِنى أَنَّه جاء مُنذ سنتينِ فقط، كان بِبريطانيا مُنذ اليوم التالي لمعرفة خبر موتي -الكاذب - وأخبرتني أنها تعتقد مجيئه لأرض الوطن كان غصبًا، قالت ليِّ إنها تعتقد أيضًا أنَّ خِطبتها منه غصبًا، وكله مِن فعل العائلةِ.

بدأت أَشكُ أنها عائلةُ إبليس، وليست عائلتي.

المهم، أنا أجلس هُنا على سريري الذي صحابته من يومين وثلاث ليال، أَكتب فِي مُذكرة هاتفي الجديد وكوني طبيبةً أعلم كم هذا مفيد، قررتُ مُعالجة نفسي فِي النهاية.

كنتُ أُعالج الفتيات في المركز التأديبي النسائي مِن قبل، لم يكُن يقتنعنَّ كوني طبيبة نفسية، بل قالوا ليِّ إن الطب هو الطب، وذات مرة جعلوني أُخيط يد أحدهن التي كانت في شجار كبير مع أخرى خرجت منه ببعض الكدمات.

كان بعضهم يحكون لي مشكلاتهم النفسية، وبكون شيء كهذا حدث كنت أراجع كل معلوماتي بين الحين والآخر، كانت الخمس سنوات ليسوا بهذا السوء، أرى أن كل شيء سيئ قد حدث بعد خروجي.

ولكن لا بأس، سنواجه مشاكل حياتنا وبعدها يمكننا التذمر، وفي النهاية غنىٰ ظهرت أنها فتاة طيبة حقًا، كنت أظلمها وكنتُ حقيرة معها.

ولكنها كانت كذلك، كانت تدافع عن حبها الصغير، الذي لا أنوي أن أسرقه منها، هم لديهم حياة ولكون أنني لست بها هذا لا يعني أن أجعلها بشعة لهم.

فكما قالت غنىٰ، أبا ميتًا أفضل من أب وأم لا يعترفون بي، ولِلسخرية هم لم يروا كيف الجميع كان يعاملني في ذاك المركز، هناك كانوا يحترمونني، احتراما لم أره بعدما خرجت من هناك، إن كان السجينات أو الحارسات وحتى شرطية المركز، كانت صديقة بالنسبة ليّ، كما أنها قالت لي قبل خروجي عن كونها تنوي زيارتي في منزلي ذات يوم.

تخيلوا معي هذا، تذهب الشرطية أصالة لمنزلي فلا تجدني، وتجدني ميتة منذ خمس سنوات؟ هل سوف تعتقد كوني كنت شبحًا!!

ضحكتُ كثيرًا، وسرعان ما تحولت ضحكاتي الصاخبة إلى شهقات، تبعها سيل من العبارات مع بكاءٍ بِصوت مرتفع.

كل شيء في الدنيا يمكن تخطيه، أو التعالج منه والامتثال للشفاء، ولكن العائلة لا، العائلة هي الداء الذي ليس له دواء، هي القشة التي قسمت ظهر البعير، التي كسرت كرامتي وعزتي، كسرت نفسي وقسمتها.

ليس لدي حتى أموال أسافر بعيدًا، ليس لدي شيء سوى الفراغ الذي يجثم على قلبي، قلبي اللعين الذي لا يزال يردد في نفسه صوت أُسامة وهو يدندن معي أمس، شعرت بالخيانة حينما فكرت به والفتاة التي تحبه تتعذب بسببه، شعرت أنني أخون غنىٰ.

لماذا، لماذا لم أمت حقًا؟

***

جلست بجانب غنى الشاردة كالعادة، في الأيام السابقة توطدت علاقتي معها لكوني محتجزة هنا بأمر من السيدة زهراء، لا أعلم حقا ما هدفها الغريب في بقائي، لا تبدو لي كزوجة أب غيور كوني بنته من امرأة أخرى، بل كانت حنونا بشكل كبير، بشكل أثار أستنكاري .

عرفت أكثر عنهم في الأسبوع الماضي، عشت كأنني شقيقتهم وهذا أسعدني، ظللت أتغاضى عن كل شيء يعكر صفو راسي حتى أن غنى كانت تردد أن أسامة أختفي مجددا وعاد لغموضه المطلق، فلم تعرف أين هو الآن.

أقسمت لها أنني لم أعد أكن له مشاعر، كان قسمي كاذبا سأحمل آثمة أنا أعلم، ولكن ما باليد حيلة هي لم تصدقني على أية حال متمته فقط أنني لا أشعر تجاهه بشيء لكنه هو يشعر.

كانت غنىٰ مسألة عويصة عليّ لتحليلها، شخصيتها لم أفهمها، من جهة تذم به وتقول إن كل شيء بينهم قد أنتهي، وجهة أخرى كانت تغار عليه من نسمة الرياح، وأنا كنت العاصفة بالنسبة لها، فإن ذكرته ولو صدفة ترمقني بتلك النظرة التي تجعلني أسخر في نفسي، تلك الطفلة تحبه وهو يكبرها بعشرة أعوام، هو يكبرني بخمس ولكونها هي بالخمسة والعشرين كما توقعت تماما كان يكبرها بعشر.

لم يكن أمر اندماجهما مع بعضهما صعبًا، أسامة شخص فكاهي مرح، يشع بالحياة ومظهره أصغر من عمره بكثير.

كما أنه وسيم وثري، من لا يريد أكثر؟.

الابن الأكبر لعمي الأصغر الذي تزوج قبل والدي وهو في الثامنة عشرة، كان عمي يشبه أبي في حب النساء.

سخرت في نفسي من تلك العائلة، مثيرة للسخرية من كل الاتجاهات أتساءل ما من ذنب قمت به لابتلائي بعائلة كتلك.

- "تزوج والدك بأمي عندما بلغت الخمسة سنوات، كان عمرك عشرة وقتها".

تكلمت غنىٰ بلا مقدمات، فسمعتها بتركيز كبير، لتتابع ببحة صوتها الرقيقة المتعبة:

"أبي كان لم يفت على وفاته إلا شهران، تمت الخطبة وتزوجا بعد انقضاء العدة".

كانت صغيرة حينما مات والدها إذا، شعرت بالاشمئزاز من نفسي، من كم كنتُ حقيرة معها، تنهدت بندم وقولت مبتسمة محاولة تغيير دفة الحديث وشعوري بالذنب :

" ماذا كان يعمل والدك، هل تزورنيه في قبره؟ أنا لدي شخص عزيز أريد الذهاب إلى المدافن من أجل زيارته بعد انقطاعي.. "

نظرت ليّ غنىٰ بتفاجئ وزاغت نظراتها توترًا، ثم نفت بسرعة مبتلعة ريقها وتابعت حديثها :

"علمت بعدئذ أو عرفت بالأصح أن والدتك كانت عقيم بعد إنجابك، كانت مشاكل كثيرة بحملها وقد توقعوا موتك قبل أن تلدي ولكنك حاربت وأتيت حيث يعم الخراب في الدنيا...

كان والدك يريد الزواج من أمي كي تجلب له ولدًا، وانظري سخرية القدر، أصبح عنده أربع فتيات بما إنه يعاملني كابنته وهكذا".

شعرت بها تخفي شيء، وتلمح بقول إني إن لم أأتي لكان أفضل، أشعر بألم قلبها وحرقتها الكبيرة، ولكني لم أعد أهتم بعقد الآخرون النفسية الآخرون، مشكلتها هي أنها تغار عليه مني وليست مشكلتي.

ابتسمت لها وكدت أن أجيب لكن صراخ إحداهن بالخارج أفزعني.

ركضنا إلى الأسفل بسرعة كبيرة، وكدتُ أن أتعثر في درجات السلالم، أنقذت نفسي من كسر وشيك أنظر إلى قمر بتعجب.

فقالت بسرعة وبشكل جعلني هلعة ركضت إلينا وهي تؤشر على غرفة مغلقة، قائلة بارتجاف:

"أُمي... أُمكِ، أنها... هي...".

نظرت أنا وغنىٰ لبعضنا البعض بخوف، ثم ركضنا إلى باب الغرفة نفتحه، لا تقولون لي إن السيدة زهراء حدث لها شيء سيئ، سَأكتئب لسنتين قادمتين إن حدث هذا.

دلفنا محدثين ضجة وضوضاء كبيرة للسيدة التي تتحدث بالهاتف بوجه لا يحمل أية تعابير، ولكنها حملت خوف عندما نظرت لي ونقلتُ نظرها إلى غنى بجانبي.

عقلي توقف عن العمل، صوت والدي الصارخ يصلني من سماعة هاتف السيدة زهراء، وأستطيع معرفة بحة القلقة وهو يقول:

"إنها المرة الثانية هذا الأسبوع يحدث هكذا لها يا زهراء، ولكن تلك المرة لا، إنها تحتضر... أنا ذاهب بها إلى المستشفى الرئيسي بمدينة الملك فهد الطبية".

توقفت عن النظر حولي بحيرة، وجاء دوري بالصدمة، لم أنتظر كثيرا لأخرج من صدمتي قبل السيدة زهراء وغنىٰ ورحتُ أفعل أكثر شيء غبي دون تفكير أن من الممكن أن تكون زوجته الأخرى، كان قلبي يخبرني أنها أُمي أنا..

خطفت من يديها الهاتف وتحدثت، كان كل شيء مررت به الفترة السابقة يُعاد ليّ من جديد، شريط يمر أمامي معاناتي التي لا تنتهي ولا أستطيع الانتهاء منها مهما حاولت، وصله صوتي الذي لم يتوقعه أبدًا :

"أنتَ، أنتَ تنتظر وتتحدث براحة في الهاتف بينما أمي تحتضر؟؟ لا شك في أنّ العروس الجديد تجعلك منشغلا عنها هـا، منشغلًا عما أحببتْ لِتثرثر مع أخرى وتجلس مع الثانية، أوليست هي اللعبة المثيرة التي رأيتها فأحببتها ولعبت بها قليلًا لتتركها بعد قليل عندما مللت، أذهب يا أبي، أذهب قبل أن آتي أنـا لكَ!! ".

أغلقت الخط غير عابئة بالموقف السيئ الذي وضعت به السيدة زهراء، وبخطوات واسعة ومتغاظة ذهبت لغرفتي.

لم اهتم لشيء الآن، وضعي هنا مؤقت وجيب ألا يطيل أكثر، كان هذا لازم الحدوث، ولم أشعر ولا بذرة ندم عما فعلت قبل قليل، كان يستحق الصراخ وبشدة، فلا رجل يحمل مروءة يفعل شيء كهذا، أنه يأذن السيدة زهراء بالذهاب بها إلى المستشفى بحق الله؟!

الرجال، كلهم خائنين حقيرين، لا يؤتمنون أبدًّا.

حشرتُ نفسي في قطعتين من الثياب التي وجدتها هنا، واخترتُ ألوانهم كأيامي، سوداء.. لم أرتدي عباءة لكوني لم أعتاد عليها لا في المأدبة وبالتأكيد ليس ببريطانيا، ارتديت سروال قماشي أسود وكنزة صوفية سوداء، ربطت شعري إلى الخلف، وانطلقتُ خارجًا بِدفعة صاروخ قلقي.

اضطرابي كان كبير، وعقلي المتعب أخذ يفكر في ملابسي على الرغم من كونها أمرا لا أهتم به، حتى لم اهتم بالكحل الأسود الذي زين عيناي بشكل كبير، يلائمها ولكنه يجعلني في قلب النهار كواحدة من الطوائف الماسونية.

استغفرت ربي وركضت إلى الأسفل بعدما حشرت رجلي في حذاء غنى الرياضي الذي كان يناسبني، ولكني وجدت الأخيرة تجلس على أريكة البهو بكل برود لأصرخ بها أن تذهب وتقِلني.

انتفض جسدها بخوف، ووقفت أمامي قائلة بنفس الرعب، مظهري كان حقًا يستحق أكثر من تلك النظرات:

"سيارتي في مركز التصليح، أمي لا تملك واحدة وشقيقتاي كذلك، وسائقنا في عطلة نهاية الأسبوع".

- "بِالله عليك؟؟". صرخت بها بأعلى طبقات الصوت لدي، إنهم متقصدين حتمًا.

اشتعلت في عقلي فكرة خروجي بالسيارة المُدماة، ولكني لا أملك رخصة قيادة، وغنىٰ لن تقبل قيادتها أبدًا، من معرفتي لها أعلم هذا، كما أن الناس سَيهلعون رؤية سيارة كهذا وكذلك الحراس والشرطيين سَيعتقلوننا بتهمة دهس أحدهم والهروب.

"أنا حدثتُ أُسامة، وهو في طريقه إلينا". قفزت قمر قائلة، لنهلع أنا وغنى التي أصبحت نظراتها مظلمة عن ذي قبل، ثم سائلة قمر:

"هل حدثكِ بشكل طبيعي ورد عليك بسرعة؟".

أومأت لها قمر بابتسامة مستمتعة، فنفثت أختها الهواء الساخن وصعدت بخطوات سريعة إلى الأعلى، مما جعلني أطلق ضحكة ساخرة.

رحلة عنيفة مع عاشقين إلى أمي التي تحتضر ليست بالشيء الهين أليس كذلك؟!

وأحد العاشقين هو أسامة الذي تتراقص الطبول داخلي كلما سمعت اسمه، إذًا كيف ليّ أن أراه وأسمع صوته يتحدث بالقرب مني، بعد كل تلك السنوات.

بعد أن عاد ليّ، عاد توأم روحي، قررتُ التنازل عنه ببساطة.

7 || العائلة

في ضواحي لندن مدينة الضَّباب علمتُ أشياء كثيرة، أكثر من أن يتصوَّرها عقلٍ بشري في يومنا هذا، البداية كانت عِندما تعرفت على أحد المجانين.

نَعم كان أحد المرضى الذي مِن المفترض عليِّ علاجهم والتدريب عليهم حتى أثبتُ نَفسي في المجتمع النفْسيُّ.

كان مريضٌ عجيبٌ، لم أرَ مثله أبدَا ولا سَأري في حياتي. كان عاقل، أعقل مني ومِن مدير المستشفى التي كنت أتدرب بها، يتحدث ويحتسي الشاي يبتسم ويتعامل مع العالم الخارجي بِطيبةً وطباع حنونة، كان كل شيء كل شيء به يوضح كم هو شخص لا يلائمه أبدًّا الوجود فِي مصحةً عقلية يجتمع بها فاقدي العقول.

ولكن كان هُناك خطب به، وأنا علمته في آخر سنة ليِّ هناك، اكتشفتُ بِالمصادفة كونه مؤمن بِمعتقد توأم الروح، وواثق تمام الثقة أن هناك فتاة ما أو سيدةً تنتظره لأنه نِصفها الآخر.

حاولت معه كثيرًا، قلت إنه هناك شابة أو سيدة يمكنه تزوجها لتصبح نصفه الأخر، ويكون القدر أن يجتمعا معًا ولكنه لم يستسَغ حديثي مُرددًا قوله الشهير :

"التوأم الروحية حقيقة وخطيرة، إنهم يمتلكون القدرة على إعادتك من حافة الموت أو تمزيق روحك إلى النصف.

ويمكنهم جعلك تشعرين بكل السعادة التي اجتمعت بالدنيا، وبإمكانهم أيضًا جعلك تشعرين بالفراغ والحزن العميقين جدًّا، أنهم أفضل من أيِّ زوجةً عابرةً".

لم أصدقه حينها، لكني كنت أشاهده فقط بِشفقة، عقيدته وحديثه، كان يؤمن بهما كثيرًا، حتى جاء اليوم الذي جعلني أدرك كم هو خطر وكم أن أمره جديٌّ.

اكتشفتُ أنه من أشهر العلماء لِلدراسات النفسية المتعلقة بِالبشر والمخلوقات الأخرى حيوانات كانت أو نباتات، كان قدوةً أقتدي بها حينئذ.

أثار في نفسي الشفقة أكثر والقشعريرة مِن كوني ممكن أن أُجن مثله وأتمسك في نظريةً خاطئة رافضةً التنحي عن كونها غير صحيحة أبدًا.

بحثتُ عن ماضيه بدافع الفضول والاقتداء، ووجدت ما جعلني أُذهل، فهو أنشأ طائفةً كاملة من العلماء والمثقفين يهتفون بِكون توأم الروح حقيقي، وهكذا اكتشفت سر دخوله إلى المصحة العقلية.

بالفعل كانت هناك تلك الطائفة ولكنها سرية، يقودها رؤساء دول وملوك، ولكن لا يجترئ أحدهم على الظهور في العلن، على قول حقيقة كحقيقة التوأم الروحية.

ظل هذا الموضوع يدور حول رأسي بتعجب وعدم تصديق حقيقته، ولكنه جاء في السنة الأخيرة ليِّ بالتدريب ليجعلني أُدهش كون مريضي على حق، فشعرت عندها أنه هو، أُسامة توأم روحي ونصفي الآخر.

كنتُ أنا وأسامة مثلما قلتُ سابقًا، في حكم الخطيبين وكنا أصدقاء كذلك، غبتُ عنه سنوات طويلة أدرس بِجد واجتهاد أترقى في كل المناصب في مركزي بِبريطانيا.

كان يشجعني من بعيد وَيحُثني على التَّقدُّم، وَلكنَّه جاء فِي السنة الأخيرة بعدما نضجت، أصبحتُ الشابة ذات العقائد والاهتمامات، التي يشغل بالها أشياء مهمة وأكثر قيمة من تصفيفة شعرها اليوم أو نوع سيارة خطيبها الباهظة.

وبِذاتها غيداء المختلفة أحبته مُجددًّا عندما جاء، رأت به توأم الروح الذي ستقاسمه نصفها، أحببته طفلةً وصبيةً وشابةً، أحببته في كل مرة كما لم أحبُ قبلًا وكمْ هذا لِوقع على قلبي بِجرحٍ عميق لا يلتئمُ.

ما بيني أنا وأُسامة شيء أكثر نضجًا، يجعلني مُتفهمة عندما عاد ليِّ وقال إنه يجب عليِّ الذهاب لأرضِ الوطن، ولم أكذب له قوله عندئذ وذهبت معه إلى السعودية مجددًا، وفي رحلتنا الجوية أخبرته بمريضي وكيف يرى أن هناك توأم روحية، وصدمني عندما قال إنه يؤمن بِذات الأمر.

حينها فرحتُ، كانت فراشاتي لا تساع الطائرة، أخبرني أنه وأصدقاءه يؤمنون بالأمر وأن لهم مجلسًا خاصًّا يتسامرون بِه عن توأم أرواحهم، وأعطى ليِّ العنوان فأخذته بِرحب صدر وابتسامة بلهاء.

ومِن قوة تعلُّقي بالأمر، وتعلُّقي بِه وبِحبي الكبير الذي كان يَنبُت داخلي لم أنتظر مهلةً طويلةً، عندما وصلت إلى الرياض تركته وذهبتُ مُتلهفة للقاء هؤلاء الَّذين قال عَنهُم، فقال إنِّ بهم فتيات أيضًا، رأيت أنني أن تعرفت عليهم يمكنني مُسَاعدَة مَريضي الذي نَقَل ليِّ دائه.

وعنْدما أُفكِّر في الأمر مجددا وأتذكَّر ما حدث لي حينها أشعر بقشعريرة تجتاح جسدي، أشعر بالخوف أن يُعاد الأمر من جديد.

-" هيّا غيداء لقد تجهزت، أُسامة ينتظرنا بالخارج".

ظهر صوت غنىٰ ينتشلني من صومعتي، همهمت لها وذهبت إليه شاردة الذهن، رأيت السيدة زهراء تمشي أمامنا بتمهل، ولكنها سرعان ما أسرعت بخطواتها لتجعلني أعي ما أنا على وشك الإقدام عليه

صُلّيَتُ داخلي كثيرًا أن تكون أُمِّي بِخَير، ولكن بحضرته لا أعلم كيف تنحي عن عقلي أمر مرض والدتي بِبساطة، وأخذتُ أنظر له في محياه وَأَجمع كلُّ آثَام الدُّنيا، بِلا خجل.

كان وكما هو واضح أن السيدة زهراء ستأتي معنا، الأمر أسعدني لكوني لست مضطرة أن أعيش تلك الإثارة معهما وحدي، كان يقترب مِنا بِسرعة وقلق قرأته على صفحةِ وجهه، سيارته الحديثة تلمعُ في الخلْفية مِمَّا جعلني أطلق نفسا كنت أحبسه طويلًا.

لا أدري لَم كنتُ أعتقد أنه وللآن محتفظ بِتلك السيَّارة التي انتقيتها معه، مُذ سبع سنوات ربما.

كل شيء تَغير، هل سيوقف التغير على معدن بِلا فائدة تُذكر كالسيارة؟

أقتربَ أكثر، ولكن خطواته بدأت في التَّباطؤ، كنتُ أريد وبشدة أن أبعد عيني عنه ولكن قلبي رفض فعل شيء كَهذا، فلم أستطع إلا النظر ورؤية وجهه بوضوح عن المرةِ السابقة بالزفاف.

وجهه الذي لم يفقد الكثير من نضارته بل فقدها كُلها، لم تعد تلك الابتسامة تحتل ثغره بمشاكسة، بل هناك خط رفيع مستقيم ومقوس مكانها، هالات سوداء ونظرات زائغة تَدل على القلق، حركة جسمه وهالته كانا في أسوأ أيامهم، وأيضا لفافةِ التبغ الثمين التي تقبع بين يديه، لم اعتده يُدخن.

رؤيته بِهذا المشهد، جعلتني أستنشق الهواء الملوث من تبغه حولي، ثم تهربت بِسرعة من عينيه التي تلاحقني بلهفة لم تخف عن غنىٰ أو السيدة زهراء :

"أرجوكم، أسرعوا". كلمتان وهرولت إلى السيارة، لم أجد شيئًا يصفني في هذا الموقف غير أنني كنت جبانة، ولكنه جُبنٍ مُفيد.

وقفت جانب باب السيارة لأنه كان مغلقًا، فِي مظهري الخارجي كُنت حريصة لجعله غير مبال، نظارتي الشمسية ساهمت في خلق تلك الهالة القوية حولي، ولكن حركات جسدي كانت فاضحةً، وكأنها تتركني عاريةً أمام أعين الجميع، كانت واضحة لأي شخص متطلع بِفضول عن لغة الجسد سيعلم كمْ كنت متوترة.

حاولت أن أظهر كالفتاة غير مكترثة، لا أملك أدنى اهتمام أنه ركض ورائي وامسك مفاتيحه الإلكترونية، ليضغط على الزر فاتحًا باب المقعد المجاور للسائق، ينظر ليّ حتى أدلف السيارة.

- "هيا يا غيـ .. آنسة". قال، ويا ليته لم يقل.

نظرت له، لِلمرة الثانية، لا أعلم ما الحديث المُناسب الذي يصف حالتي؟ كم سطرًا وكم عبارةً وكم روايةً وحكايةً ستكفيني للتعبير عما أشعر، كيف أصفُ مشاعري وحالتي، بينما آخر لقاء جمعني به كان قبل ألف ثمانمئة خمسة وعشرون يومًا من ال ... جفاء، الخوف والشوق.

الأمواج داخلي لا تُساعد في التحدث، هي لا تساعد في فعل شيء، سوى التجمد في النظر والنظر فقط.

النظر الذي ساعدني لأرى الشيب الذي أشتعل في رأسه مبكرًا، خصلاتٍ مُتمردةٍ وزعت بعشوائية هنا وهناك، وكأنها تروي عن كم المصاعب والمواقف التي خاضها في حياته، عن كم من صدمات تحمل عقله.

جفلتُ على حركة السيدة زهراء أمامي وهي تدفعني جانبًا مُمسكة بِغنىٰ جعلتها تدلف عنوة إلى المقعد الأمامي الذي كان لا يزال أسامة يمسك بابه ناظرًا ليِّ، بأمل.

ابتسمتُ ساخرة وأنا أدلف إلى المقعد الخلفي، السيدة زهراء دارت حول السيارة وجلست جانبي، بينما لا يزال أسامة مُمسك الباب ينظر حيث كنت واقفة فقط، ينظر إلى الفراغ.

عاهدتُ نفسي وقلبي ألا يتحطما، قلت داخلي أنني الدخيلة هنا، أنا الميتة التي عادت للحياة في يومٍ وليلةٍ، ولا شك في أن الأمر في البداية صعب عليه ولكنه سيعتاد فهو يحب غنىٰ وهي تحبه، أنا لا مكان لي في تلك القصة، لا يوجد أموات يحتلون الطرف الثالث.

- "وي، حُبي هل هناك شيء ما؟".

تحدثت غنىٰ برقة ونعومة كبيرتان، ولم أستطع إلا التبسمُ بسخرية، هي كانت ناعمة في الحقيقة ولكن ليس معي، لهذا تفاجأت.

همهم لها أُسامة وأغلق الباب ثم ذهب لمقعده ينطلق بِسرعة.

اعتصرتُ الهاتف الذي يقبع بيدي، كل شيء يعاد من جديد، وهذا خطير على قلبي، وعلى عقلي أيضًا الذي لا يترك فرصة إلا واستغلها لإعادة كل شيء كما لو أنه أمس.

سرعة سيارته زادت أكثر، يضغط على المكابح وكأنها ستحدد مصير حياته، يسابق الرياح وينطلق بقوة الصاروخ متفادي مئة حادث وشيك، ولهذا صرخت.

لكن داخلي.

صراخي المكتوم ترجمهُ جسدي على هيئة اصطكاك أسناني ببعضهما البعض، تقوس جسدي إلى الأسفل، احتضنت نفسي بذراعاي الذات بدورهما كانتا بهما تِلْك الأظافر التي أخذت تلتحم مع جلدها .

- "بسم الله عليكِ يا بُنيتي، بسم الله". تحدثت السيدة زهراء بسرعة تربت على كتفي وتعيدني إلى أرض الواقع، حيث توقفت السيارة فجأة فصرخت غنىٰ بفزع، ولكن أسامة نظر وراءه ليّ، وألتف بكل جسده قائلًا بِنبرة فزعة :

"هل أنتِ بخير؟ كل شيء على ما يرام !!".

- "إنها السرعة فقط". نبستُ دون أن أنظر له، وابتسمتُ للسيِّدةِ زهراء ابتسامةً واهنة، لم أهتمُ لَم فعلتْ قبل قليل أمام السيارة، كان في عقلي تصويرات أكثر من تلك وأكثر جموحًا.

هي زوجة أبي بعد كل شيء، وغنىٰ ابنتها الكبرى، لها كل الحق في بَعد الخطر الذي يُهدد سعادتها، ويمكنني أنَّ أخبركم وأؤكد لكم أنني أكبر خطر على تلك العلاقة.

لم أهتم بعدها بنظرات غنىٰ التي ترمق أسامة بها بين كل حين والآخر، نظرت فقط كل خمس دقائق إلى الوقت، ولاحظت أن السرعة هدئت بشكل كبير، حتى أننا أصبحنا نمشي بِسرعة سلحفاة.

- "أُسامة، أسرع يا بُنيّ". قالت السيدة زهراء ما كنت على وشك الصراخ به، ولكنه همهم ثم نظر لنا بالمرآة أمامه قائلًا :

"لكنها تعاني من اضطراب السرعة، ستتأذى".

- "أرى أنك تهتم بشأنها أكثر من أن تهتم للرد عليّ، أُسامة".

تحدثت غنىٰ بِبرود، فنظر لها ولم أعلم حينها معنى نظرته تلك، إلا أنها صمتتْ وتابعت تأمل الطريق في وجوم.

لم تعد هُناك طاقة ليِّ بالتحدث، فاقتربت من السيدة زهراء غير مكترثةً لعيناه التي تتابعنا في المرآة وقلت لها بِهمسٍ خفيضٍ :

"أنا بخير، لكن أخبريه أن يسرع فإذا لم يفعل سأنزل وأصل على قدمي أفضل وأسرع".

- "نحن عدنا في عصر الإبل أم كفار قريش؟". قال بعدما أنهيت حديثي، فجفلت وأخذت أرمش بِتعجب وأنا أبتعد عن السيدة زهراء، لكن هذا لم يمنعني من الرد عليه بسخرية :

"نحن أحفادهم كما تعلم".

- "نحن؟ لًا نحن أحفاد الصحابة"

-" ما دليلكَ؟ ".

-" هم سعوديـ_.. ".

-"كفى" تحدثت غنىٰ بحقد يشع من صوتها، ففضلتُ الصمت واحترام ما تبقى من كبريائي أدعو في سري أن تكون أُمي على ما يرام، فأنا لم أكتفِ منها بعد.

عِندما وصلنا المستشفى لَم أنتظر أُسامة يصف سيارته بِل فتحتُ الباب وهرولت إلى الداخل تحت صياح السيدة زهراء القِلق.

لَم يأخذ الأمر مني وقتًا كثيرًا للوصول، ذهبت لِعاملة الاستقبال وقلتُ لها عن اسم والدتي فأخبرتني بِموقع غُرفتها بِابتسامةً متوترةً جعلتني أهلعُ.

ركضتُ إلى هناك، وجدت والدي يستند على حائط كُتِب عليه حالات الطوارئ، وجانبه كانت كُلَّ العائلة.

حرفيًا كلُّ العائلة، مما جعلني أفهم لماذا ابتسمت العاملة بتوتر، بسبب عدد عائلتي بالتأكيد .

8 || تُهمة

عِناق، هل أستطيع الحصول على عِناق؟ يُبعدنيّ عن العالم كله، أَحتمي فيه مِن كلَّ كروبي وتعثراتي، كل أفكاري البائسةِ وجروحي الغائرةِ، أيُمكنني الحصول على عِناقكَ يا أبي؟!

عندما وقفت أمامه تلك المرة في وضح النهار انهرتُ، دموعي سقطت وانهمرت بسرعة، وتواصلنا البصريِّ لم أقطعه حتى تدخلت عمتي جواهر وجاءت إليِّ بنظرتها المتعجبةِ قائلةً :

"ألستِ أنتِ صديقة غنىٰ، هل تجلسين عندهم طوال تلك المدة يا ابنتي؟".

زاغت نظراتي في المحيط حولنا، وأصبحت أكثر توترًا أمام والدي الصامت صمت الموت والعائلة التي أخجل في قولي هذا إنني بالفعل اشتقت لها.

-"جواهر عيبٌ حديثكِ هذا، هيا تعالي هُنا". تحدثت جدتي والدةُ أبي، تأخذ عمتي بعيدًا وترمقني أسفل عدساتها الدائرية بازدراءٍ وشك، جعلت توتري يزداد أكثر، فحولت نظري بعيدًا عنها أنظر إلى الجموع حولنا المستشفى كان مُكتظ عائلتي.

بِلال كانَ هُنا مع أمه ووالده، ونسمةٍ ابنةِ خالتي وعمي الأوسط في الوقت آنه كانت تقف جانب خالتي وتنظر ليِّ خلسةً، جدتي والدة أُمي منهارة على مقعد بجوار غرفة العناية، وخالي مُحمَّد كان يقف بجوارها وعلى ذراعه طفل يُشبهه، جعلني مشهده أشعرُ بِالحنان إليه، وأخيرًا ابنيّ عمتي جواهر مصطفى وفهد الذي كان يختلس النظر ليِّ هو الآخر.

- "انتظري يا أُمي، هي صديقة أبنتكِ يا معتصم، أنظر الفتاة حقٌ جميلة أحببتها، ولكن لا أعلم لماذا تجلس معهم للآن". سمعت صوت عمتي المُتعجب، بعدها اقتربت ليِّ تمسكني مِن يدي كأنّي عروس ماريونيت في يديها تقربني إلى أبي.

نظرتُ له من جديد أحاول بِفشل كبح دموعي، ولكن لا بأسٍّ لا أحد يشعر بها من الأساس كان شعري يحجب نصفها، كان أبي يبادلني النظر بشرود لم استساغه ولم أفهمه.

- "أمرها يثير التعجب، انظروا تبكي أيضًا". تحدث صوت رجل من خلفي، وكأنه قرأ أفكاري فأزال حصني الخفي، فزعتُ أنظر إليه، فهد الذي يلتهمني بنظراته بِشكل أثار تقززي.

نظرت له بحدة، ولكنه اقترب واستمر بالاقتراب، حتى توقف على صوت أُسامة الذي جاء من المصعد:

"لا تشغل بالك في أمور لا تعِّنكَ يا فهد".

قال بِحقد جعلني أتراجع إلى الوراء مجددًا ولكن بِتعجبٍ تِلك المرة، خلفي صدحت قهقهات فهد الساخرة يرمقني بنظرة مُستحقرة ثم تقدم إلى أُسامة الذي كان يقف أمام السيدة زهراء وغنىٰ، وقال له بصوت خفيض لكن أغلبِ الحاضرين سمعوه :

"هل تعجبكَ؟! أُنظر إنها لا تساوي ريالًا واحدًا، ثمنها بِخسًا يا ابن الخال".

ارتفعت يد أُسامة ليلكمه، ولكن غنىٰ أسرعت بامساكها ونظرت إلى نسمة بنظرة مشتعلة وقالت : "أجمعي كرامتكِ وكرامة زوجكِ واذهبوا من هُنا، لا تنسين أن تعلميّه آداب التحدث".

- "هذا مؤثر حقا يا ابنةِ الخا_...".

- "جواهر، خُذي ولدكِ واذهبي مِن هنا هّيا".

تحدث والدي بِصراخٍ قويّ، ارتعشت عمتي على أثره بِخوف، واقتربت من ابنها تلدمه في صدره وتأخذه بعيدًا عنّا، تبعتهم نسمة بسرعة ترمقني بازدراء ونظرتْ إلى غنىٰ بغضب.

استنتجت أنها زوجته، وهذا الموقف ذكرني بكم كان فهدًا غليظًا وذو أعين زائغة على أي تاء تأنيث.

في حين كنت أنظر إليهم أمسكت غنىٰ ذراع أُسامة وسحبته بقوة إلى الخارج، تحت نظرات الجميع.

- "أنتِ تعالي ورائي". قال أبي بحدة، ولا شك في أن الجميع نظر حينها باستغراب لنا، ولكني تبعته ألقى نظرة خائفة إلى السيدة زهراء التي لم تبتسم ليّ حتى لطمأنتي، ونظرت نظرة سريعة على باب غرفة والدتي الذي كان مصباحه على الضوء الأحمر للآن.

أنا الآن وحدي أمام العائق الأكبر في حياتي، والدي.

ذهبت وراءه دون أن ألقى نظرة أخرى على عائلتي، أنا أشعر بالفعل بنظراتهم التي تحرق جسدي.

استقبلني الهواء الطلق من جديد، تعانقني النسمات ولفحات الخريف المرهقة، رائحة المعقمات الطبية ملئت الحديقة ومشهد أُسامة مع غنى بالقرب من الباب الرئيسي يزين الخلفية، بينما والدي في مُقدمتها.

ابتلعت لعابي، وبصعوبة جعلت بصري يذهب إلى والدي الذي جلس... يتأملني ؟

بحركة غريبة وغير متوقعة احتضني بقوة جعلتني أشعر بتهشم عظامي تحت ذراعيه القويتين، رائحته البهية اختلطت بأنفاسي ودموعي، شعرت أيضًا بقطرات باكية على رأسي كان هو مصدرها.

جسده أخذ يهتز شيء فشيء، يشهق بالبكاء فيزداد بكائي معه، كان فقط يتمتم بكلمات غير مفهومة وأنا عقلي لم يعمل إلا بكون أمنيتي الصامتة تحققت وحصلت على عناقه.

وفي تلك اللحظة بالتحديد، بعدما شعرت بالدفء بعد سنوات عجاف مليئات بالبردِ والفراغ، أقسمت أنني لن أتخلى عن أبي ولن أتنازل عنه، لن أتنازل عن عائلتي لأجل عائلة أخرى، لن أدمر حياتي بدافع إبقاء حياة أشخاص أخريين أمنة.

سأكون أنانية ولو لمرةً واحدة.

ابتعدت عن عناقه، على الرغم من كوني لم أُريد الابتعاد، كنت أُريد المكوث هناك بين ذراعيه للأبد، ولكني أعلم كم هذا غير ممكن.

نظرت لوجهه عن قرب، كان جميلًا يشبه وجهي، يشبهني لأنني ابنته، وابتسمت .. كان بالفعل بالوسامة التي جعلته يستحق الزواج من ثلاث نساء، أبي الوسيم.

-"أشتقت لكِ يا غيداء، أُقسم أنني أشتقت منذ زمن، حين حدثتيني كنت غير مصدق، أنه أنتِ عزيزتي صوتكِ من جديد".

ابتسامتي تلاشت بِبطء، الحروف لم تنهمر على شفتي لحديثه، بل أنهمرت إلى عقلي الذي كان موعده يشعل إنذار القلق والاستنكار، الذي تركه بفعل العاطفة.

إنِّ كان مِشتاقًا فلِمَ لَم يأتِّ يرى ابنته السجينة في المركز التأديبيُّ ولها خمسِ سنوات، إن كان مُشتاقًا حقًا لِمَ لَم يستخدم نفوذه وأمواله ليخرجني من تهمة مُلفقة كَتلكَ، وإن كان مشتاقًا فلِمَ لَم .. لَم يعترف بي أمام العائلة كلها بالأعلى !؟ لِمَ أثار في قلبي شعور الهلع ذلكَ ؟

تدفقت أفكاري على شفتي، أنظر له بعيني الباكية وقلبي المهشم، سألته، عن كل شيء خطر في عقلي عن كل الهواجس الذي أُريد لها تفسيرًا، عن نفسي التي أصبحت هُلامًا، عن مستقبلي غير المرئي، سألته عن كل هذا فأجابني أجابته الخرساء ونظره معلق في أرض الحديقة الخضراء:

"هل تعلمين بأيةِ تهمةً دلفتي المركز التأديبيُّ؟".

نظرت له بتحذير ألا يقولها، الأدرينالين تدفق إلى أوردتي فأصبحت ارتجافة يدي ظاهرة للعيان، استمررت في البكاء الصامت والهواء حولي تقلص ببطء وبصورة جعلت من دقات قلبي هائجة.

- "زنا ... دلفتي زانيةً". وهكذا تحدث أبي يجعلني أخرُّ على ركبتي وكل شيء مضي يتراقص حول عيني، وكأنها أبوب الجحيم قد فُتِحت.

9 || غيداء

يكون الأمر أشد صعوبة، أشد ألمًا للرأسِ وللقلب، عندما يكون مواجهة حقيقة لاذعة، عندما يُقال الحديث بكل صدق وشفافية دون تجميلًا للكلام.

لا أدري ولا أعلم ما حل بقلبي المكسور، لكنه انكسر أكثر، وشعوري لم أعرف أن أصفه حينها، ولن أعرف أن أصفه اليوم، كان شعور يجمع بين الخذلان الحزن والخوف والغضب.

خرجت مني مشاعر لَم أكن أتخيل قط خروجها يومًا، وأيضًا خرجت جميعها معًا، بشكل جعلني أشك كوني مصابة باضطراب الهوية النفسي.

نظرتُ إلى الأرض النجيلية أسفل قدمي، أخذت أهرسها بلا شفقة، دموعي ترويها بملحها وشهقاتي ترتفع أكثر وأكثر، بينما والدي يتحدث ولا يصمت أبدًا :

"كان كلُّ شيء يؤكد أن ما حدث كان بإرادتك، فتاة تجلس بِبلدٍ أجنبي سنواتها الجامعية كلها، عادات مختلفة عن هُنا وأشياء مسموحة وأشياء محرمة أصبحت مباحة لك، كان كل شيء يؤشر ضدكِ غيداء".

تراجعت خطوات للوراء بقلق، أصابعي أخذت أفركهما ببعضهما محاولة الحصول على بعض الطمأنينة، ولكن بدلا منها حصلت على جرح صغير ينزف في باطن يدي.

كان كلامه محفزًا قويًا يجعلني بسهولة أستطيع التذكر، تذكر ماضيِّ الذي دُمر بسبب غلطة لَم يكن ليّ دخلٌ بها وسذاجة وغباءً مني التسرع حين تلك الحادثة، وكون أبي يصدق إدانتي بفعل كبير كهذا تجعلني تلك الفكرة أقف على الحافة .

كنت على مشارف الدخول في حالة من اللاوعي وبحر الذكريات إلا أن صوت أُسامة القلق انتشلني بسرعة، فأولته جمّ اهتمامي أنظر له ولغنىٰ التي تبعته بتروٍ:

"خالتي زهراء اتصلت وقالت إن الخالة كريمة استيقظت... وتريد رؤية ابنتها".

نظرت له بَفرحةً كانت لا تسعني، بل وجعلت ليّ أجنحة خيالية تحيط بي، إلى التقدم حيث والدتي.

-"الكل يردد أنها تُخرف، تريد ابنتها الميتة وهذا يجعلهم يظنون أنها علـ_...".

صوته تلاشي ببطء، لأني ركضت بأقصى ما أملك حيثُ الغرفة، دموعي تتسابق مع الرياح وأمل صغير وبسيط انبثق داخل قلبي، برؤيتها ورضاها عني، وعيش حياة آمنة مطمئنة بجانبها، لا يسعني تخيل مقدار سعادتي حينها.

كان الجميع في الممر يقفون ينظرون بِتوتر فيما بينهم، والممرضة تقف في المنتصف تتحدث مع جدتي والدة أمي التي تبكي وتقول أن لها الحق برؤية ابنتها.

اقتربت منهم بتمهل، أرَ الأنظار توجهت ليّ، فسارعت بمسح دموعي التي لم تجف، مع أن الأوان قد فات بالفعل والجميع رآني، نظرت لهم:

"أن الأمر ذكرني بوالدتي، مشاعري مضطربة".

قلتُ بهدوء أَخذ جانب السيدة زهراء التي رمقتني بنظرة عابرة ثم وجهت نظرها حيثُ الحديث المُشتد بين الممرضة وجدتي والدة أُمي.

شعرت بالاستنكار تجاهها، ولكني فقط لَم اهتم، فكان لدي أشياء أكثر تشغل بالي عنها، كوالدتي مثلًا.

عندما نجح خالي محمد أخيرًا في إبعاد جدتي، وبعد هروب الممرضة إلى ممر آخر، لحقتها بعيناي ولم أنتظر أكثر وأنا أتقدم ببسمة صغيرة مرتبكة إلى خالي محمد، وهمست له:

"إن الجلوس هنا لن يجدي جدتي نفعًا يا خال، يجب عليك جعلها تستريح في المنزل".

رمقني بملامحه البشوشة المفاجأة، التي كانت متعبة للغاية، وتحدث بابتسامة واهنة:

"لا عليكِ يا ابنتي، لقد كنتُ سأفعل هذا بالفعل، وعلى ما يبدو لا رجاء من جلوسنا جميعا هنا، أتساءل فقط لو ابنتها كانت هُنا لكان الوضع أفضل".

نظرت له بانكسار، ورددت على ابتسامته الواهنة بابتسامة أخرى مثلها، كان الأمر وكأنه وضع سكينًا في شرخ عميق داخل قلبي، حتى يؤلم أكثر ولا يفعل غير هذا.

سمعته يقول لمصطفى ابن عمتي جواهر إن يجلب السيارة، وقال لبلال ووالده نفس الشيء، وببطء الجميع بدأ في الانسحاب من حولنا، ولكن والدة بلال وأسامة توقفت تنظر ليّ بهدوء، ثم قالت بهمس لم يسمعه سواي:

"تشجعي عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام يا غيداء". رمت قنبلتها-بكل هدوء- تجعلني أفتح عيناي على مصرعهما، وجدت بلال ينظر ليّ مبتسمًا بسخرية، وأرسل ليّ غمزة عابثة.

هم بالتأكيد ينون هلاكي.

بعد نقاشات طويلة بين الجميع، توصلوا أن نسمة ستأتي هُنا لتجلس مع خالتها لكونها قريبة منها كثيرًا، وعندما قالوا هذا شعرت بالغيرة الشديدة، حتى أن خالتي تمتمت وقالت أن من الممكن كون أمي تريد رؤية نسمة وأختلط الأمر عليها بقولها ابنتي، لأن نسمة مثل ابنتها.

وهكذا وقفت في الممر مع السيدة زهراء وبلال وأبي وغنىٰ وأسامة.

وعندما لمحتُ الممرضة تأتي إلى الغرفة ركضت إليها بسرعة قائلة:

"أنا هي ابنتها هل يمكنكِ أداخلي الآن ؟! ". نظرت ليّ بشك، لكنها سرعان ما همهمت على مضض وسحبتني خلفها إلى الداخل.

***

كانت الغرفة مليئة برائحة المعقمات الطبية، والطريق بين سريرها الأزرق برداء المستشفى شعرت به بعيدًا عني كثيرًا، ترددتُ في التقدم ولكن نظرات الممرضة المستنكرة حثتني على الذهاب إليها.

وقفت جانبها أتأمل ملامحها الذابلة وعيونها المنغلقة بتعبٌ ووهنٌ، لم أعتاد على أُمي أن تكون هكذا، كنت طوال عمرها جميلة بروح أجمل وجسد شابة في الثلاثينيات، لَم تكن بهذا الوهن أبدًا، لو كنت أدري أن هذا سيحدث لها فقط لو كنتُ أدري.

أمسكتُ يدها اليسرى، والتي كانت ملئية بالمحاليل والأسلاك الطويلة الطبية، ابتسمت بحزن عندما وجدتها تفتح أعينها وتطالعني.

شعرت بيديها على شعري وابتسامة مرهقة رسمتها تحاول التحدث لكن جهاز التنفس لَا يُساعد، لذا خلعته بقلق، أستمع لصوتها المهتز والسعيد:

"ويّ، يا يدي وعيوني وقلبي! كنت أنتظرك ...".

رق قلبي وعباراتي قد تسابقت مع الرياح بالفعل مبتسمة بأمل ورجاء؛ أن تعود ليّ والدتي من جديد كما أتمنى! تحدثتْ بصعوبة شديدة وبنبرة مرتجفة:

"أنا آسفة... آسفة على سنوات عمرك التي قد فاتتك... كل هذا بسببي يا غيداء كله بسببي".

انعقد حاجباي بعدم فهم، فوجدتها تسترسل في الحديث بشهقاتٍ متقطعةٍ مُتعبةٍ:

"كان ذنبي أني استمعتُ لحديثها... كانت حرباء تغير لونها في كل مرة، خدعتني على حسابكِ أنتِ خـ_...".

قطعت حديثها فجأة، وسمعت صوت صفارة مزعجة من الجهاز الذي بجانبها مما جعلني أهلع، ركضت إلى الممرضة التي كانت تقف خارج الغرفة حتى ترى ماذا حل بها، لكني وجدت صف كامل من الأطباء يهرعون إليّ أنا وأُمي، بينما أنا نظرت لعينها المنغلقة بعدم فهم وخوف، لا يمكن أن تفعل هذا، لا يمكن أن تتركني قبل... قبل أن تسامحني على الأقل !

أُسامة، غنىٰ، بلال وأبي والسيدة زهراء كلهم دلفوا بخوف، بينما أنا كنت أعتصر يدي التي كنت أمسك بها يد أُمي، كنت متجمدة أرى الجميع يذهبون ويهرعون في الغرفة ويعبثون في جسدها بصدمات كهربائية، كيف لهم أن يعبثوا بجسد أُمي هكذا، كيف أبي لا يتحدث كيف له؟

مررتُ بحالة هلع، والدموع تحجرت في عيني، ولكني وجدت جسدًا يسد عليّ رؤية أمي والأطباء الذين يعبثون بها، وكان أُسامة هو صاحب الجسد.

-"أنظر... كيف؟ أنهم... لًا ليس لًا يجب يجب أن أخبر أبي ألا يفعلوا بها هكذا، أفسح ليّ يجب أن أَراهَا".

لم يتحرك أنشًا واحدًا وأصرّ على الوقوف مكانه، فمشيتُ بعصبية أريد الذهاب إليها ولكنه منعني بسهولة بعدما مسك ذراعي بكل قوته وقال:

"هيا تعالي من هنا، هناك شيء يجب أن تعرفيه".

-"اتركني وشأني ! ".

-"هناك شيء مهم، لا دخل لكِ بما يحدث هنا هيا أمامي".

-"أيها الوغد أُصمت واتركني وشأني !".

لكنه لم يسمع كلامي وهو يجرني خارج الغرفة، وهنا استوعبت أن الجميع خرج بفعل الممرضة التي كانت تريد خروجي أنا الأخرى لكني كنت في عالم أخر، سحبني أُسامة خارج الغرفة وعندما ظننت أنه سيتركني هناك، لَم يفعل وأكمل سحبه لذراعي أمام الجميع وعلمت أن وجهتنا هي الاستراحة.

كانت دموعي متحجرة تأبى الخروج، أنظر إلى ظهره الذي يعيقني عن رؤية أي شيء غيره أمامي، وفقط سؤال يراودني .. لِمَ الدنيا لَم تكن عادلةً أبدًا معي؟

جلسنا على طاولة تطل على الحديقة، كنت أجلس أمامه وأنظر له يطلب قهوة من النادل لنا، ولكني فكرت في كم أنه تهور عندما جلبني إلى هنا أمام خطيبته والجميع.

وجه نظره لي بابتسامته العذبة التي أصبحت محرمةً عليّ، حمحمتُ بهدوء اعتدل في جلستي ثم قلت له أتصنع البرود واللامبالاة:

"والآن؟".

-"الآن يجب أن تعلمي كل شيء، كل ما كتمته طوال هذه السنوات".

نظرت له بفضول، وتذكرت كلام أُمي المبهم وهي تعتذر عن شيء لا أعرفه، وجاء في ذهني فكرة أن من الممكن كون هناك شيء مشترك فيما يرغب بقوله.

وماذا سوف يكون بجعبته على أية حـ_...

-"غيداء أنا كنتُ أعرف كل شيء منذ البداية، أعرف أنكِ لم تكوني ميتةً كما قالوا، أعرف أنكِ كنتِ في المأدبةِ لخمسة سنوات، وكنتُ أعرف موعد خروجكِ أيضًا".

وهكذا لم أستطع سوى النظر إليه، وكانت الصدمة قد ألجمتني عن إصدار أي رد فعل ...

10 || كما تشوه قلبي

"كنتُ أعرف موعد خروجكِ أيضًا، الأمر كله بدأ عندما عُدتي من لندن وعرفتكِ على تلك الجماعة. أنهم كانوا يحقدون عليّ يا غيداء وكنتِ أنتِ الحل الأمثل للانتقام، لم أكن أعرف أن كلَّ هذا سيحدث بسببي، لكن أنا أعلم أنني كنت جبانًا بالهروب وعدم الدافع عنكِ، كنتُ أكبر جبان ...

جئت لكِ بفكرة التوأم الروحية والتي كنت أنا مولع بها تلك الفترة، ثم عرفتكُ على أصدقاء الشؤم هؤلاء والذين كانوا مجرد عهره لا يؤيدون الفكرة ولا شيء بل كانوا جماعة فواحش والعياذ بالله من زنا وقوادة ومتاجرة وأمور لا يجب عليِّ التحدث بها.

اخترتُ الصحبة الخطأ وحاولت التبرير لِضميري عندما حدثتك عن أمر التوأم الروحية، وقلتُ لكِ إنَّ أصدقائي هؤلاء يؤيدون أمر أكتشفتيه أنتِ كطبيبةً نفسية، وعندما أخبرتكِ بعنوانهم لم أتوقع أن تذهبي هكذا.

كنت أنفُخ ريشي الوهمي أمامكِ يا غيداء لأنني كنتُ أُغار منكِ! فأنتِ متعلمة ومثقفة أكثر مني ولديك رفقة مثقفين وأباطرة في مجال عملهم، فلم لا أحصل على صحبة كتلك أمامك ولو كانت مزيفة!

كنت أرى أني لو قلت لكِ هذا لكنت سأصبح في عينك كبير رجل واعٍ ومثقف ليس مجرد مهندس بترولي لا شيء له من علمكِ، كنتُ أحتقر نفسي كثيرًا يا غيداء ...

وبعد أن أتيت بكل سذاجة لعب القدر دوره بشراسة معنا؛ تم البلاغ من أهالي الحي الذي سكتوا كثيرًا عن أفعالنا وبلغوا عن مجموعة من الشباب والشابات في أفعال غير لائقة وبعدها جاءت الشرطة واعتقلت الجميع بتهمة ممارسة الرذيلة ولم تفرق بين الطبيبة الجامعية أو اللصوص الحثالة ... وأنا كنت الجبان الذي يرى حبيبته تضيع من بين يديه دون الإقدام عن فعل شيء بل لم أكن متواجدًا لحمياتك من الأساس".

نكس رأسه في الأرض خزيًا، يجعل ذاكرتي تومض بضوء الماضي وكأن السنوات التي مرت لم تمر، بل وكأن كل شيء حدث بالأمس .. ولشدة مقتي لتلك اللحظات وإعادة صياغتها بعقلي طويلًا أصبحت أحفظها عن ظهر قلب ..

كنت أجلس خلف عجلة القيادة في سيارتي البيضاء المتلألئة، نظارتي الشمسية أعلى رأسي وابتسامتي تصدح باتساع بسبب أحمر شفاهي الذي لونه كالدماء، وأدندن أغنية لطيفة كنت ولا زلت أحبها بل وأعشقها:

"أنا اتوب عن حبك أنا؟

أنا ليّ في بعادك هنا؟

كيف، أنا أترجاك

الله يجزيك

يا شاغلني معاك

وشاغلني عليك!".

خرجت للتو من منزلي بعد أستقبال أمي ليِّ وأبي العزيز وقبل رؤيتهما كان أُسامة من أوصلني للمنزل وبعدها ذهب في عمل طارئ يتركني خلفه بينما كلماته لا تزال تتردد داخل رأسي، يشغلني حديثه عن التوأم الروحية، أصبح هو ومريضي الذي لا أزال أعتبر نفسي طبيبته كانوا من يشغلون حيزًا كبيرًا بعقلي، وفكرة أن هناك مؤيدين بتلك القصة لهي مفاجأة كبيرة ليِّ.

والفكرة كلها تكمن أنَّ إذا كان هُناك حقًا مُن أصحاب أُسامة- والذي هو معروف بالعلم والمعرفة والرقيُّ- فلا بد أن أصحابه ذو شأنٍ عالٍ ورفيع وصوتٍ في البلد قد يصل إلى بريطانيا كلها، ومن يعلم ربما سيكون هناك مُصطلح علمي جديد يخبرنا بمدى جدية نظرة مريضي- الطبيب المتقاعد-.

وقفت بسيارتي أمام عمارة فارهة في حيٍّ راقٍ كما توقعت، قال أُسامة إن اليوم الساعة الخامسة مساء موعد تجمعهم في ذلك الحي، وعندما بحثتُ أكثر عن الأمر وأستخدمت بعض الأساليب الملتوية في معرفة أين تقطع شقة تجماعتهم وجدتها بسهولة، فهي في الرياض ومن يتوه في بلدته وإن كان غائبًا عنها لعمرٍ كامل؟

تنهدت ونزلت من السيارة على مهل، كانت درجة الحرارة خارج السيارة كارثية بالمعنى الحرفي، جسدي يكاد يمطر عرقا بشكل مقزز، نظرت حولي في إشمئزاز ولكني تحاملت على نفسي وأصررت على إجراء تلك المقابلة والمفأجأة لأُسامة الذي -بالتأكيد- سيكون بالأعلى، فمن يعلم يمكن أن يكون لقائي بجماعته تلك نقطة تحول في تاريخي كله!

وربما سأصبح بعد ساعات على شاشات العالم بعد الإنجاز والنظرية العظيمة الذي اكتشفتها وأيدني بها العديد من الأشخاص.

يمكن أن أنسب النظرية لمريضي لا بأس في هذا حقًا.

أستقليت المصعد إلى الطابق الثالث عشر، خرجت ليقابلني باب مغلق يعود للشقة التي قصدتها، ولكن أصوات الموسيقى تصدح بقوة من خلاله، مما جعلني أعقد حاجبَاي بتعجب.

لا شك أنني أخطأتُ العنوان، فلا يُصاحب أُسامة التقيُّ الراقي أشخاصًا يستمعون لموسيقى! ما باله نسى أنه مسلم؟

تقدمت أكثر بتوتر، كدت أرفع ذراعي لدق زر الجرس لكن سرعان ما أنفتح الباب في وجهي فسمعت الصوت الصاخب بشكل أكثر صخبًا!

وجدت وجه شاب يقابلني، رمقني بدهشة أولًا ثم عاد ينظر ليّ من أعلى للأسفل بوقاحة، بينما كنت أطالعه بعدم فهم وأنا أقول:

"هل أُسامة هُنا ؟ ".

ضيق عينيه بشك يترك سؤالي مُعلقًا، وأرجع رقبته للوراء قليلًا يرفع صوته بقوة قائل لأحدٍ ما بالداخل:

"هيا شباب هل ما أراه الآن حقيقيًا ؟ ".

ثم أردف بسرعة يعاود النظر ليّ ثم يرجع كما كان :

" إنه يوم سعدى كما أرَ !".

أصبح الوضع جِد سخيف ويجب عليّ التراجع عمّا نويته الآن فما هو واضح أنهم ليسوا مجموعة من التقيين، ولكن هل أحكم عن الأشياء بسطحية قليلًا؟ يمكن أن تكون شخصيته وقحة ساخرة ويمكن أن يكون هناك حفلة ميلاد بالداخل لا يجب عليّ سوء الظن.

نظرت للمكان الذي ينظر إليه بفضول ولكني لم أستطع تبين شيء في كل حال، فهو أعاد رأسه إليّ وهناك نظرة في عينيه أعلم جيدًا للأسف معناها ولم أكن أتوقع أنها ستقابلني في السعودية بعدما تشبعت منها في أميريكا حتى طفح كيلي.

- "العنوان خاطئ إذًا، يجب عليِّ الذهاب أعتذر عن الإزعاج سيدي".

وبالفعل تراجعت خطوات للوراء بِنيةِ فتح باب المصعد والنزول، لكنه من العدم تشبث بيدي يمنعني من التراجع أكثر وهو يقول بلهفة ونبرة ساخرة:

"لا يا قطة تعالي، أُسامة آل سعود أليس كذلك؟ غنوة؟ غفران .. غدير لا أذكر اسمكِ حقًا ولكنه قريب من هذا".

-"غيداء اسمها غيداء يا مُراد! إني لا أتوه عن أمثالها".

ظهر صوت فتاة من لا شيء تتشدق بنبرة حاقدة بشكل غريب أنا لا اعرفها كيف لها أن تعرف اسمي! نقلت نظري لها ثم للرجل ثم ليده التي تكاد تفصل العضلات عن عظام معصمي، حدقت مجددًا بلا استيعاب ثم انتشلت يدي بقوة وبيدي الحرة صفعته.

- "قلة حيائكَ على من هم أعلى شأنًا من أمثالك المريضة يا حقير قد تؤدي بأفعال لا تريد لنفسك القذرة الانحراف لها، أنتَ أقل قيمة من سبي لك أيها الخطل".

كنتُ خائفة حد اللعنة وحد الموت، أتساءل فقط لماذا يفعل أُسامة بي شيئا كهذا ولماذا بالأساس يرافق أشخاصًا مثل هذا الشاب وتلك الفتاة، كيف ينحط بمستواه لهذه الدرجة!

رفع ليّ أعينه والتي كانت حمراء مثل مكان صفعتي له بأصبعي الخمس على وجنته، لكنه من بدأ فهو يستحقها بجدارة، ولكني ارتعبت أكثر من نظرته الغاضبة تلك ولم أشعر سوي بجسدي الذي يدخل عنوة إلى الشقة وصوت الباب الذي يصفق بقوة وحقد.

نظرت حولي بفزع أشاهد أشخاص كثيرة وجميعهم يضحكون، رجالًا أما نساءً عاريات كانوا، الجميع يضحك ويسخر مني، ونظرات الرجال تجعلني أشعر أنني أقف أمامهم كما ولدتني أمي.

حاولت الفرار صرخت وضربت وتعبت وضربت ثم حاول ذلك الخسيس أخذ ما هو ليس بحقه من جسدي الشريف أمام الجميع وتحت الصيحات المشجعة له كي يتمادى بعد!!

-" يا الله.. يا رب!".

دموعي كانت تكفي شلالات العالم كله وتفيض، ترجيته ألا يفعل حاولت بكل ما أملك من قوى لكني وبعد محاولات بائسة مستميتة غير قادرة عن المقاومة من جهتي شعرت بفقدان الأمل، ومع آخر شعاع نور طلبت من الله النجدة وقد لبى طلبي في ثوان ...

سمعت صافرة الشرطة تصدح بصخب يضاهي صخب موسيقاهم المدنسة ثم الهلع والفزع من الجميع وخوفهم وركضهم في الشقة كلها، بعدها وأخيرا سمعت صوت كسر الباب وتوافد رجال مع النساء الشرطيات بسرعة لإمساك المدنس والطاهر بلا تفرقة، وكأن الجميع معي سيان وأنا لم أعرفهم قط قبل دقائق فقط.

تم القبض عليّ، ولم يمر على وجودي بالسعودية يوم كامل حتى، وبعد دخولي جدران المحاكمة لم أرَ النور أبدًا إلا في طريقي للذهاب إلى جدران المأدبة العتيقة، لم تؤخذ أقوالي على محمل الجد وكان جميع أصدقاء أُسامة الحثالة يؤكدون عن معرفتهم بي وأنني معهم، وهكذا حكموا علي بسبع سنوات وتمت الرأفة بهم بسبب حسن السلوك وأصبحوا خمس.

أمي صدقت تلك الأقوال عني ولم تشغل عقلها في تفقدي أما أبي فهو لم يتكرم ويأتي لجلسة محاكمتي، وأسامة... لم أره ولم ألمح طيفه لدرجة أنني خفت أن يكون قد حدث له شيء سيئ، قلقت عليه بديلا عن القلق على نفسي التي تنهار وتتصدع.

أما أنا كنت في يوم وليلة من خريجة جامعة بريطانية وطبيبة نفسية حاصلة على شهادات عدة إلى مجرد عاهرة يقولون عنها عاهرة لأنها داخل جدران المركز السعودي النسائي التأديبي بتهمة ارتكاب فاحشة من الكبائر، لا وبل تحت سماء أرض واحدة مع مكة المكرمة.

كان القصاص سوف يتم علي ولكنهم عفوا عني لسبب لا أعلمه حقًا، ولكني بدأت أشعر أن القصاص سيكون أفضل بكثير مما أنا وضعت فيه، تعاملت من النساء والمشرفات بقذارة ودونية، تخطط جسدي بعلامات الجلد والسوط، تشققت كفوفي من قطع الزجاج الصغيرة، وكان كل هذه هين مقارنة بما شعرت به داخل المأدبة.

لم يفسر عقلي الذي أعاد صياغة تلك الحادثة كل ليلة ويوم في سنواتي الخمس حبيسة كعصفور داخل قفصًا وهو من أعتاد الحرية، لم يُفسر عقلي معرفة تلك الفتاة لاسمي ولا أن أُسامة يعرف أشخاصًا على تلك الشاكلة البشعة، لم يُفسر عقلي شيء سوى أن أُسامة من الممكن كون غاضب مني لأني ذهبت لهناك، كنت أختلق له أعذارًا واهية فقط وأتشبث بأمل زائف كالتي تمسك الفراغ بين أصابعها.

نظرت له، ولدموعه التي تأبى المهانة والانزلاق من حدقتيه، بعدما قال ما قاله كان يضع عينه في الأرض خزيا، وأنا كان بالنسبة لي كلامه كالصفعة التي توجهت إلى قلبي.

على من كنت أغار على من يدق قلبي وكأنه طرزان كلما رآه؟ على خائن جبان رعديد لا يسوي شيئًا! على من تسبب في قهري وإنقاص من عمري عمرًا ومن شبابي دهرًا ! لمن؟ لمن ينبض قلبي لمن توقع أن عهده مصونًا وصدم عندما وجده ملقيًا في حاوية نتنة بهيئة كذبةً ليس إلا.

نقلت نظري إلى السماء الملبدة بالغيوم، وابتسمت بهدوء ..

لكن تلك الابتسامة لم تكمل لأن الدموع التي تفيض كنهر جار خربت الصورة لتشويهها؛ كما تشوه قلبي .

11 || إنَّا للهِ

في أول لقاء لنا خارج تلك القاعة كان يسخر مني؟ بقوله إنني مُت! ..

كان يكذب على نفسه حتى عندما كَتب في مذكراته أنيّ مُت، أنه يختلي بِنفسه عند شاهد قربي للبكاء عما مضى وهو يعلم أن هذا القبر فارغًا خاويًا.. أتحطم عندما عَلِم أن ما تبقى مني أشلاءٍ؟ أولم يكون هو السبب في تمزيقي لتلك الأشلاء المتناثرة!

كان داخلي الكثير من الصراخ، الكثير من التعجب والاستنكار والكثير من الاشمئزاز.

كيف؟ كيف سولت له نفسه أن يفعل شيئًا كهذا بي حتى وهو أمام أعين أبي وأمي المكسورة بكون ابنتهم ارتكبت فاحشة، كيف لَم يعترف أنه السبب في كل هذا من الأساس؟

لكن لا داعٍ لننسى أن لغبائي مقدارًا كبيرًا في اللوم.

كان لؤمًا منه فعل كل هذا بل وخطبة غنىٰ، كان لؤمًا منه أن يراه الجميع الحبيب الذي تعذب وأشتاق لمحبوبته ولم يعرفوا أنه من أحال حياتها لجحيمٍ حتى يتمتع هو بالنعيم براحةً -بمفرده-.

لم أعرف مقدار بلهاتي سوى الآن وأنا التي كنت منذ لحظات مهتمة به ويلتهب الجمر في صدري عندما أراه مع غنىٰ بل وكنت فرحةً عندما أظهر اهتمامه بي في السيارة، وبسبب بلهاتي فأنا أستحق وبشدة كل ما فعل بي هذا الحقير.

دموعه لم تكن مفتاحًا لغفراني له، لم أهتز ولو لمقدار شعرةً واحدةً وهو يبكي كالخِطل الفاسد أمامي، كنت أرى نفسي في عينيه اللامعة، أرى غيداء التي عاصرت ما لَم يجب على إنسانة بمكانتها وشأنها بين المجتمع معاصرته، حتى أن هويتي عند أهلي بسببه تبخرت ..

وهنا اعترفتُ بكرامتي حقًا، وقد أبدو لئيمة في حديثي ولكني هنا في اللحظة تلك عرفتُ أن نظرية التوأم الروحية صحيحةً مئة في المئة...

فكما قال مريضي التوأم الروحية حقيقة وخطيرة، يمتلكون القدرة على إعادتك من حافة الهاوية أو تمزيق روحك إلى النصف، وكذلك كان؛ فأعادني من حافة الموت عند رؤيتي له ولا يزال يتذكرني بعد كل هذا الغياب والسنوات العجاف، ثم مزق روحي نصفان بعملي أنه تخلي عن آخر شيء يربطنا ببعض وربط مستقبله بأخرى وبعدها فعل ما فعله من أفعال حقودة.

وفي سطور روايتي هو من فعل وأنا كنت المفعول به طوال الأحد عشر فصلًا... الثلاثون سنةً.

فَلِمَ لا أختمُ أنا قصتي معه، وأكون أنا الفاعل تلك المرة؟

أفقتُ من تحديقي الصامت له عندما سمعت صوت خطوات تقترب، فوجدته يسارع بمسح دموعه ويجلي حنجرته، بينما أنا نظرت إليه بسخرية أستمع لصوت صاحبة الخطوات التي قالت بغيظ كبير من ورائي:

"أظن أن عليكِ تفقد والدتكِ يا غيداء".

نظرت لغنىٰ بصمت ثم ارتسمت أبشع بسمة رسمتها في حياتي على ثِغري ووقفت بهدوء وذهبت من أمامهم.

شهيق زفير، شهيق زفير، تنفسي غيداء أنتِ قويةً لَا يؤثر بكِ ولو مقدار شعرة ما حدث أنتِ أقوى منهم جميعًا وسترينهم ويلات ما أذاقوه لكِ، جميعهم.

استنشقتُ نفسًا أخر تزامنا مع اقترابي من مكان الغرفة، ولكني عندما زفرته فتحتُ نافورةً من البكاء بصوتٍ مرتفع بشهقات كالأطفال أقول بين شهقاتي بقهرٍ:

"يا الله صبرني، يا رب أعني يا رب".

لم أستطع التوقف وبدأ العالم حولي بالتصدع ببطء، اللون الأسود يخترق كل شيء ويرهقني، وما أن كدت أسقط إلا وجدت يدًا تساندني على الوقوف وصوتها القلق ورائحتها التي تذكرني به اخترقت مساحتي:

"بسم الله عليك يا قرة عين أُمكِ، ماذا حدث يا غاليتي؟.. لا تغمضي عينيكِ، تنفسي .. كل شيء على ما يرام .. ".

كانت والدة أُسامة، لا أعلم لماذا عادت ولكني سمحتُ لنفسي بالاستسلام ولو لدقائق بسيطة داخل أحضنها، استراحة محارب من حروبه الضارية يمكن؟

كل ما أعلمه أن الظلام ابتلعني ...

***

"ألم تعلِموها أن والدتها قد ماتت؟".

-"لا يا عمتي لَم يقول لها أحدًا شيئًا والله، لا أعلم ما سبب انهيارها المُفاجئ هذا".

-"كلٌّ هذا ولم تعلم إذا ماذا لو علمت؟ ستقيم الحد عليكم، على كل أنا أعرف أن لكم يد بما يحدث لتلك المسكينة يتيمة الأم، كريمة لن تحب رؤية ابنتها هكذا".

كانت أصوات مشوشة تصل لعقلي والضوء جعلني أعقد عيني بإنزعاج، كما إنني أشعر بفراش وثير اتسطح عليه... أين أنا ولمن تلك الأصوات؟

-"ها هي تستيقظ يا عمة هل أُنادي أُمي؟". ميّزتُ صوت غنىٰ الرقيق تهمس لإحداهن بجانبي.

-"لا أتركيني معها الآن وأذهبي لا أُريد من أحد التواجد معي أنا وهى الآن".

كانت والدة أُسامة مَن تتحدث.

حاولت فتح عيني ولكن الضوء المزعج إختراقها بقوة جعلتني أغلقها مجددًا، ثم واصلت فتحها وغلقها حتى رأيت رأسان فوق رأسي.

تأففت غنىٰ بصوت منخفض ورأيتها تتمتم بشيء ما وتخرج بسرعة مصدرة صوت غلق الباب.

نظرت لوالدة بلال وحتى في عقلي سأتلاشى ذكر اسمه بعد ذلك، وهمست بصوت مبحوح لم أعلم أنه سيخرج بتلك البحة:

"أين أنا؟ وماذا حل بأمي؟".

-"نحن الآن في غرفة أسامة على ما أرى". قالت بهدوء مبتسمة تتخطى إجابة سؤالي الأخير، ومرت دقائق أتواصل معها بصريًا حتى استوعبت كلامها .. هل أنا الآن في غرفته و... ونائمة على فراشه!

انتفضت بهلع فقابلني وجهها القلق والمتفهم لذا؛ سمحت لنفسي بالنظر في أجزاء غرفته التي ولدهشتي كانت كما كانت منذ زرت المنزل في السابعة عشرة من عمري في زيارة قصيرة من الدراسة وتلك الزيارة لم تمتد سوى لثلاث أيام فلم أرى سوى أُسامة وعائلته وأبي وأمي.

تنهيدة مثقلة خرجت من فمي أنظر إلى زوجة عمي دُرّة، والكثير من الأسئلة في عقلي بالفعل.

-"حسنًا يا غيداء، أنا لا أعلم متى استيقظتِ من موتتكِ ولا أعلم ماذا جرى بينك وبين أُسامة ولا أُريد أن أعلم، كل ما عندي أنكِ هنا ابنتي ويجب تعلمي شيء قد حدث قبل غيابكِ عن الوعي، في المستشفى".

قالت بهدوء وهي تقترب بنفس الهدوء إليّ، والشعور داخلي الذي يخبرني أن هناك شيء خطأ يحدث قد كبر في قلبي كثيرًا، حاولت التفكير فيما تُريد أخباري إياه وحينها فقط تردد في عقلي كلماتهم قبل استيقاظي بشكل تام.

'ألم تعلمونها أن والدتها قد ماتت؟'

-"والدتك قد رحمها الله من ورمها الخبيث يا ابنتي، أُذكري الله يا غيداء.. وبِشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ... -سورة البقرة: ١٥٧-".

وهكذا ألقت مصيبتها وأخذتني بسرعة بين أحضانها تجعلني أكتم شهقات بُكائي داخل عنقها.

***

قالت ليّ عمتي دُرّة أني غبت عن الوعي لمدة يوم كامل، أي أن تم تغسيل والدتي ودفنها وإقامة اليوم الأول من العزاء وأنا داخل غفوتي.

حقًا لا أعلم من وضعني داخل هذا المنزل ولكن على كل حال لن أظل أكثر من هذا.

كانت الساعة الثانية ظهرًا حينما أستيقظت، وأخذ الأمر مني عدة ساعات أتقبل الأمر ثم في الساعة الخامسة مساء التي هي الآن؛ أنزل على درج منزل أُسامة ذاهبة إلى بيت العائلة الذي بجوار هذا البيت ملتصق به.

كان شعور خانق في قلبي، شعور يبتلعني ببطء، شعور يقتلني في كل ثانية تمر علي أستوعب أكثر ما مقدار الكارثة ما مقدار المصيبة وما مقدار وثقل كلمة إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله وإنا إليه راجعون يا أُمي.

سأعود لله يومًا ما، مثلما ذهبتِ وسبقتني.

حينها إن شاء ربي سأراكِ يا أُمي، سألقاكِ يا حبيبتي ويمكنكِ التحدث ليّ كما تشائين وإخباري بما تضمر نفسكِ الغالية...

مسحتُ عيوني بسرعة أتصنع ملامح واثقة غير مبالية، بينما أنا قلبي يكاد ينصهر حزنًا وقهرًا على كل شيء، إنا لله وإنا إليه راجعون.

عندما وصلت إلى الباب وجدت السيدة زهراء في وجهي، استغفرت الله ونظرت لها فوجدتها ترمقني بابتسامة غريبة وتحتضني قائلة:

"رحمها الله يا عزيزتي رحمها الله، أنا منذ الآن مثل أُمـ_...".

قاطعتها بتربيتة خفيفة قليلًا على كتفها وأنا ابتعد مبتسمة بسمة بشعة بالتأكيد لكني حاولت جعلها لطيفة حتى توازن كلامي :

"لا بأس يا سيدة زهراء، أُعذريني عليّ رؤية أبي".

هل كان وقحًا أن أقول لها أن أُمي تدعي كريمة ولا ليّ أُمًا أخرى؟ هل كان وقحًا قولي لها أن أُمي ليس لها بديلًا أو شخصًا ما يحتل مكانها متى يريد.

أُمي لا تعوض ولن أعوضها بعبارات زائفة منمقة حتى لو كنت أحب السيدة زهراء لكن مكانها في العائلة يُحتم عليّ الغيرة لأجل أُمي ولو مقدار ذرة.

تركتها مذهولة وخرجت تقابلني الحديقة الواسعة خاصة المنزل وبجوارها حديقة منزل العائلة ثم تلك الاستراحة المفتوحة على الحديقة، كانت أنسب مكان لإقامة صوان العزاء كما أن غرفة الضيوف وغرفة الصالون -بالتأكيد- ممتلئات بالنساء في الداخل.

خرجت صوب المنظر، رقبتي كانت عالية أمشي بخطوات متزنة كما تعلمتُ دائمًا في علم النفس، فلغة جسدي كما أريد أن أظهرها لا كما هي فعلًا تُريد أن تظهر.

وقفت بالقرب من صوان الرجال أنتظر أن أرى شخصًا ما أعرفه حتى يدلني إلى أبي أو أن أرى أبي نفسه مثلًا.

لكني تراجعت خطوات للوراء بصدمة متخلية عن لغة جسدي وكل شيء وأنا أنظر له ذلك الذي كان يزورني كل يوم في كوابيسي لمدة لا تقل عن عام.

ذلك الذي حاول الأعتداء عليّ .. مُراد !!

12 || لكمة وصفعتان

اقتربت أكثر بخطوات متلهفة وقلقة، كنت أظن أني أتوهم ولكني لا أتوه عن وجهه إنه هو الخطل نفسه.

ولمدة طويلة كانت أقدامي متشبثة بالأرض بصدمة من مقدار دناءة أُسامة وحقارته ليحضره هنا بل ولاستمرار علاقتهم معًا بعدما فعل ما فعله بي!

مشاهد مُتقطعة يعرضها عقلي لتعذيبي، ذكرياتٍ قد لُوثت بوحل حقارتهمَا والحرقةُ في صدري تشتعل بل إنها تلتهب كجمراتِ الجحيم السابع ..
أسئلةً وكلمات والكثير منهم في رأسي .. هل حقًا ذلك الوغد الذي جعلني أمكثُ في المصحة النفسية لمدة لا تقل عن سنة وستة أشهر أثناء مدة سجني، هل هو حقًا أمامي الآن وفي وسط منزلي يُعزي في أمي بكل راحة؟

وهكذا اشتعلتُ أكثر مِمَا أنا مشتعلة، تركت قدمي الضعيفة التي على شفة حفرة من السقوط بسبب ارتجافها، تركت أصول وعادات وتقاليد وتقدمت من صوان الرجال بخطواتٍ مهرولةٍ مشحونةً بالحقد.

وجدت فهد ابن عمتي جواهر في وجهي يطالعني بصدمة من اقتحامي المكان هكذا، بينما بجواره يقف أخوه مصطفى وبجوارهما يقف بلال يصافح رجلًا ما وبجواره يقف خالي محمد بنظرات شاخصةً في الفراغ.

لكني لم أقف لأكثر من ثانيتين وأنا أتقدم أكثر بغضب وحقد، تعرقلت في البساط على الأرض من شدة غضبي وهرولتي ولكني لم أمهل نفسي الثانية أكثر وأنا أعتدل وأقترب إليه.

أمسكته من شماغه مما أدى إلى إسقاط عقاله، وجدته ينظر لي بدهشة والصدمة تحتل ملامحه لكني لم أمهله فرصة وأنا أفعلها، تلك اللكمة التي تدربت عليها كلما شعرت أنني أشفق على نفسي بسبب ما آلت إليه أحوالي بسببه، فلكمت الجدار، لكمت الوسادة، لكمت السجينات والمشرفات، حتى أستطيع أن ألكمه إن دعى عليه أحدهم ووجدته في طريقي من جديد ..

يا الله ما أجمله شعورًا، أن ألكم ذلك الخطل بعد سنوات من العذاب إنه أجمل شعور.

كل من حولي توقف عن التحدث، شعرت بنظرات الجميع عليِّ ولَم أحتَج أن أتأكد حتى، فأنا بصقت عليه بقرف أنظر للدماء التي سالت من أنفه بتشفٍ وقلت بنبرة خرجت مني قوية ومشمئزة لأبعد الحدود:

"والله الذي رفع السماء وثبت الجبال وخلق الجمال، والله الحي الذي لا يموت، الذي لا نَقسمن باسمه عبثًا والله أيها الوغد الوضيع لأذيقنكَ زلات ما أذقتني إياه أنت والخطل صاحِبكَ، أُصبر الصبر فقط .. ورحِمَ الله إمرؤٌ عرف قدر نفسه واعرف أنت أيها النكرة قدرها ولا تريينني وجهك مجددًا إلا حينما تأتي ساعتكَ على يدي أَنا".

صمتتُ قليلًا أتنفس بعنف وقد مسكت بياقة جلبابه النتن ثم أردفت أركله إلى الأرض:

"هيا هيا إلى الخارج يا نـكرة".

-"غـيـداء".

استمعت لشهقات الرجال! عقب نداءه القوي وبعض الشهقات النسائية، رفعت نظري بسرعة أبصر وجهه الذي لم يوضح ليِّ كامل بسبب خصلات شعري الثائرة على عيني، ابتسمت باتساع بسمة لا تمت للسعادة بصلة، بل كانت قاتمة سوداوية وبشدة.

تركت النكرة من يدي ينبطح أرضًا ولا أدري من أين جاءتني القوة لفعل ما فعلته به حقًا حتى أنني لم اهتم لتجمع الرجال حولي ومن بينهم فهد، وبلال الذي يكاد يلكمني إلى الحائط حتى أذهب، ولكني أعلم أن كل ما فعلته بالنكرة صاحبهُ لن يأتي مقدار شعرة فيما سأفعله بمن أمامي.

أُسامة.

اقتربتُ منه بسمتي تتسع أكثر بِبشاعةً، ثم وما أن وقفتُ أمامه لا يفصلني عنه سوى إنشاتٍ معدودات صرحت :

"ماذا يا صاحبه هل تُريد رؤية شيء مثير آخر؟ اسمع لقد عشتُ عمري كله في أميركا أتعلم تلك الأشياء المثيرة! ".

-"اسمعي أنتِ تفهمين الموضوع بشكل خاطـ_...".

لكني قاطعتُ حديثه بأصابعي الخمس الذي نزلت على وجنته بقوة وصدى صوت وصل لآخر المجلس.

نعم أنا بيدي هذه صفعت أُسامة باليد التي أقسمت على حبه بخاتم به ماسةً، بيدي هاته صفعته أمام عدد غفير من الرجال الذي يقابلهم يوميًا في حياته.

صفعتُ أُسامة الذي لا يجرؤ من هم أعلى شأنًا في البلاد كلها على رفع أصبعًا في وجهه، صفعت أُسامة آل سعود ولقب عائلته وحده يكفي، صفعت حبيبي وخائني وغائري وجباني المفضل وهو الجاني على قضيتي .

ابتسمتُ بتشفي والحقد الذي يخرج مني صوبه يكاد يمطر وابلًا على الجميع حولي، رقبته لا تزال على نفس جهتها باتجاه الصفعة، وأنا لم أنتظره يعيش الدور بابتذال بل أمسكت وجهه بقوة وجعلته يقابلني ثم قلت بصوت عالٍ مشمئز:

"لا أصدق أن كانت هناك علاقة تجمعني بك، لا أصدق أني في يوم وثقت وكدت اقترن بقوادٍ مثلكَ".

الصمت عم المكان مجددًا إلا من شهقات مكتومة، صمت مخيف مهيب ولا أحد يجترئ أن يتنفس مخافة قطع الصمت الذي تسيد المكان، عداي أنا بالطبع، اقتربت منه بشكل أكبر أهمس بكلمات لم تصل لأحد سواه:

"هذه الصفعة كانت لغيداء التي أحبتك ولغيداء المغفلة التي صدقتك ولغيداء الغبية التي بكل بساطة ذهبت لمكان قذر كالأماكن التي ترتاد عليها لكني لم أشفي غليلي بعد يا أُسامة لم أشفي غليلي منكَ بعد".

ابتعدت عنه مجددًا ورفعت يدي كي أصفعه من جديد ولكنه بسرعة أمسك ذراعي بقوة وغضب يحاول كبح زمام نفسه، وأنا أعلم أنه يغضب بسرعة وحينما يغضب يصبح كالثور الهائج ولكنه من كي أهتم له.

ظل يبادلني النظرات وهو يمنع يدي عن صفعه فابتسمت له بسمة خبيثة وكدت أصفعه بيدي الأخرى لكني وجدت يدي عالقة بين ذراع غليظة قوية.

نقلت نظري لصاحب اليد، فقابلني وجه أبي الغاضب الذي أخذني من ذراعي بقوة ودفعني للأمام كي أتقدم للخروج، وقفت باعتراض فوجدته يصرخ بصوت قويٍّ مجلجلٌ:

"إلى الخارج يا غيداء، إلى الخارج ولا تعودين مجددًا".

لكني لم أتراجع أو أدهش، بل تقدمت من أبي ولم أكن أنوي شيئًا سوى التحدث إليه والشكوى، لكني ومن جديد لم أستطع وحرمني من حقي عليه إذ إنه صرخ بي من جديد:

"ألم تستمعي لحديث أُمك؟ قالت إن ابنتها ماتت، ما باللكِ مُتشبثةً بالحياة للرمقِ الأخير؟".

كلامه أوجعني بشدة، وقسوته جعلتني أتنهد وابتسم بسخرية، ثم نظرت إلى أسامة الذي كان يتابع ما يحدث بتيقظ وأوداج مشتعلة من شدة ضغطه على يده بشكل قبضة، وجهت نظري لأبي وقلت بابتسامة متسعة بشعة:

"ليس لدي رد الآن حقًا، لكني أُريد أن أعلمكم أنه قواد نجس، هو السبب بكل شيء وإن لم تصدقني اسألوا النكرة المنبطح أرضًا هناك، هذا لو كان عندك يا أبي ولو مقدار ذرة من النخوة على عرض ابنتكَ".

لم أنتظر أكثر من أهرول إلى الخارج، لكني توقفت على صوت صفعة مدوية، فنقلت نظري بتعجب إلى الخلف، لأجد خالي محمد يصفع أبي بقوة ويبصق على وجهه !

شهقت مثلما فعل الجميع ونظرت إليه يمسك بيد أبي ويده الأخرى أسامة ثم أشار لفهد وبلال له وأمرهم بصوت غاضب :

" خذوا هذا الرجل على الأرض وأتبعوني للداخل".

ركض بلال إليه بينما فهد توقف قليلًا ينظر بحنق ثم تبع بلال وخالي يمشي بتبرم.

وأنا لم أدري أأفرح مما فعله خالي أم أرثي نفسي وأرثي أبي وأرثي قلبي الذي لا يزال ينتفض كلما لمح أُسامة ويستمر بضخ الأوكسيتوسين فيجعلني بلهاء أمامه، ذلك الوغد.

13 || لم تفعل

في بعض الأحيان نُخطِئ، وفي العمر كله لا يوجد سوى عدد معين من الأخطاء، فلو أخطأنا بعدما انتهى ذلك العدد المسموح لنا به تكون حينها قد سقطت النكسة الكبرى.

ولكني وعلى الرغم من قضائي خمس سنوات داخل جدران المأدبة وكان من المفترض أن يكونوا سبعًا بعدما عفوا عن رجمي، لَم أُخطئ بالقدر الذي يجعل حصالةِ الأخطاء لدي تنفذ، إنما أبي هو الذي أنهى كل المحاولات المسموحة له في الخطأ.

جلستُ أنظر حولي في توتر وسط الجو المشحون، جلسنا في غرفة واسعة ذات أساس تراثي لدولتي، فكانت المقاعد عبارة عن وسائد في الأرض متوزعة بشكل مربعي على كامل الغرفة التي كانت واسعة ذي سقف منخفض بعض الشيء، إنها المجلس الخارجي.

كنا نجلس بشكل ما بقرب من بعضنا، فجلس خالي محمد في الوسط بيني وبين أبي وبجانبه في الناحية الأخرى كان يجلس بلال مع أسامة بينما فهد يقف ممسكًا بالنكرة الذي يسمى مرادا وعلىٰ وجهه ضجر شديد.

لَم يسمع أي شيء داخل الغرفة، تسيد الصمت الأجواء المشحونة بالتوتر إلا من تنهدات أبي العالية وتنفس أسامة المرتفع ودقات عقارب الساعة التي يطالعها خالي محمد بقلبٍ وجلٍ وتركيز شديد.

تحرك عقرب الدقائق مجددًا يكسر الصمت الخانق معلنًا على تمام الساعة التاسعة مساءً، ولكن سرعان ما عاد الصمت من جديد وعادت أفكاري تزاحمني داخل عقلي وتجعلني أفكر بأسوأ الاحتمالات الممكن حدوثها.

لمحتُ خالي محمد ينظر ليّ بهدوء، فبادلته النظر أجده يربت على يدي الموضوعة بحجري ويعتصرها بِلطف يرسل ليّ نظرات مطمئنة جعلتني أبتسم في أكثر لحظاتي خوفًا ورعبًا.

خالي الحبيب أنه جلس ساعة كاملة يحضنني بقوة ويوزع عليّ قبلاتٍ وهو يبكي ويقول إنه سيفعل كل شيء لرؤيتي بخير، لطالما كان المفضل لدي في تلك العائلة ولطالما اعتبرني ابنته، وكان يريد مني تفسيرًا طويلًا عما حدث معي لكنه قد أجله قائلًا أن أبي هو من يجب عليه تفسير كل ما حدث والمصيبة التي اقترفوها في حقي.

لكن أبي لَم يتحدث بشيء وهو يطلق ضحكات ساخرة كلما سنحت له الفرصة ويرمقني بنظرة متوعدة أرسلت في قلبي حزنًا وغمًا، فلم أعد تلك الطفلة التي تخاف منه، بل أصبحت خريجة المأدبة التي تشفق على علاقتي معه.

أين دموعه التي ذرفها في المشفى؟ ألا أستحق أن يواجه العائلة كلها من أجلي؟ ألا أستحق أن يكون ليّ سندًا مرة واحدة فقط؟ ألا أستحق أن يسمعوني ويفهموا الحقيقة مني؟

بالصراحة لا أحد يستحق تبريري بعد كل ما فعلوه...

-"انتظرت ساعتين كاملتين ولم يأتي نبيل والدك يا أُسامة، ماذا سأنتظر بعد هل يجب عليّ المبيت هُنا؟".

قال خالي محمد بعدما ترك يدي وهو ينظر إلى أسامة بغضب وسخط، خالي محمد يكون زوج عمة أُسامة، وعلى الرغم من علاقته الوطيدة من أخ زوجته الذي يكون والد أُسامة، إلا أنه كان متحيزًا ليّ بشدة يجعلني لَا يسّعني سوى التهكم على والدي في سرِي.

اتفقوا على قول كل شيء أمام العم نبيل الذي كان في الإمارات وموعد هبوط طائرته اليوم في الثامنة مساء، لكنه حتى الآن لم يأتي.

-"أعتقد أن عليّ وعلى هذا الرجل الجلوس، فهو ضيفنا بعد كل شيء".

تحدث فهد بتبرم يقطع الصمت وهو يعدل وقفته ويديه التي كانت تحكم الإمساك على ذراع مراد، نظر له خالي بنظرات غير راضية ولكنه في النهاية أومأ له بصمت يجعلني أنظر إليهم بضيق ولكنه سارع الأقارب من أذني يهمس بهدوء:

"لا تقلقي يا حبيبتي، لن أصمت عن حقك ولو كنتِ أنتِ الجانية هنا، لكني لا أعرف ماذا حدث بعد وإسلامنا أمرنا بإكرام الضيف".

ابتسمت له بامتنان ولم أكد أحدثه حتى صدح صوته الذي يجعلني أرغب في التقيؤ يقول بحشرجة:

"غيداء أسمعيني_...".

زجره فهد بعنف يتحدث بصوت قوي وغليظ:

"أحترم المكان الذي تجلس به ولا ترفع عيناك على حريمنا، إلا والله لثقبتها لكَ".

ذكروني أن أشكر فهد لاحقًا، لكني الآن كنت مشغولة في النظر إلى مراد بحدة وحقد لم أكنه لأحد بكثرة هكذا بمقدار حقدي إلى مراد.

وقف أُسامة بتعصب شديد يتجه ناحية الباب وقد صرخ عليه خالي محمد بالتراجع لكنه لم يخرج حقًا وعلمت لَم وقف هكذا بعدما لمحت فستان غنى الأسود، وقف يتكلم بعصبية معها ولم يصلنا إلا همسات خفيفة لبعد المسافة ولإنخفاض أصواتهم.

كاد خالي أن يقف ليلحقه لكني أمسكت بيديه أمنعه وأؤشر برأسي إلى غنىٰ، فوجدته يتمتم بشيء ما ويذهب للشرفة لمحاولة التحدث مرة أخرى مع العم نبيل -على ما أعتقد-.

إذًا هل أنا الوحيدة المهتمة لأمره حقًا؟ هل حركاتي تفضحني بهذا القدر! أوليس عاهدت نفسي على عدم الانسياق لمشاعري البلهاء نحوه مرة أخرى؟ ما بالي أحبه كالمهووسة الفاسدة!

-"عيناكِ تفضحكِ، إنه لا يسوي ريالًا واحدًا".

تمتم مراد ليّ مجددًا بصوت عال، هل لا تفكي أفكاري التي تدفعني للحافة حتى يأتي ويقول هذا هو الأخر، وما أشفي غيظي عليه أنه أحضر شياطين فهد الجلسة، فقام الأخير بعصبية يقول بينما يجرّ مراد للخارج:

"أنت حقًا لا تستحق أن تُعامل كالبشر، لا أدري ماذا فعلت لها لكنك لا تعجبني أبدًا، هيا دعني أرى حسنُ أعينك في سكيني التي ستثقبها".

وتوجه للباب الذي يغلقه أسامة بظهره وهو يتحدث إلى غنىٰ بحديث مشتعل آخر، أستمر فهد بجر مراد إلى أن وصل للباب وفتحه علي وسعيه فظهرت غنى ذات الدموع والأعين الحمراء، وعلى ما يبدو أنها قد رأتني للتو فوجدتها تندفع كالقذيفة عليّ وتصرخ بحدة وغضب:

"أنتِ وللمرة الثانية تدمرين سعادتي! لا أعلم ما هي طينتكِ؟ أين كرامتكِ وكبريائكِ؟ يا امرأة أبي قال لكِ اذهبي لماذا أنت هنا ها؟ من يوم جئت والمصائب تنهمر على رأسي كصنبور تأكله الصدأ فانفجر، اذهبي من هنا وأزني كما تشائين بل وأصبحي عاهرة أيضًا لا يهم ما أنت من الأساس عاهرة، هيا لا أريد رؤيتكِ حول زوجي وعائلتي هيا مِن هنا".

كانت تتحدث وهي تدفعني للإمام حتى أني تعثرت وكدت أقع لولا استنادي على الحائط بتشويش، بينما هي لا أعرف من أين لها تلك القوة الخفية التي تكاد تفتك بجسدي المتعب والوهن ولكني لم أشأ التقهقر بعيدًا بينما هي تقول على عائلتي عائلتها، وعلى أبي أبيها، تقول على حبيبي زوجها يال فرحتي! أصبحت أنا حقا الدخيلة هنا؟ لكني اعتبرتها صديقتي في تلك الأيام التي قضيناها سويًا !!

وأمام الرجال الذين كانوا مدهوشين عدا أبي وأُسامة ومراد، وقفت بوهن أحاول إدعاء التماسك المزيف أمامها وأمام محاولتها القوية لطرحي أرضًا أو طرديٍّ إلى الأبد من حياة عائلتي حتى تمثل هي دوريِّ!

لكني ما كدت أفتح فمي بالتحدث والمدافعة عن نفسي بعزة وأنفة تنتهي بخروجي من العائلة على أية حال إلا وسبقني صوت العم نبيل الواقف أمام الباب يتحدث إلى غنى بقسوة ويرد لها الصاع صاعين:

"سعادتك تلك لا شيء بما تشعر به غيداء وبما عانت به لتستيقظ في يوم بلا أية ذنب من طبيبة مشهورة ومعروفة في الرياض وأميركا إلى سجينة بتهمة كالتي قذفتيها في وجهها بينما هي لم تفعل شيئا لا يرضى الله بخصوص هذا الموضوع.

لو كنت في عمر أصغر بقليل ويحق ليّ التحدث بحرية لكنت سوف أسألك يا غنىٰ، كيف يكون المعتصم هو أبوك بينما أبيك هو حارس منزلنا القديم وأمكِ زوجته التي كانت تعمل خادمة في بيتنا!

لا أقصد أية إساءة لطالما اعتبرتكِ ابنتي، لكنك لم تفعلي وأسأتِ لابنة أخي الحقيقة وتحدثني بكل تبجح تنسي من تكونين وما طينتكِ أنتِ، غيداء من عائلتنا..

غيداء هي ابنتنا نحن فلا تحاولين بأي شكل من الأشكال الإساءة لها وقذف المحصنات لأنكِ لو فعلتي والله لأتبرأ من ذلك المعتصم الذي لا يفعل شيء سوى الهرب بِجُبن، واجعليه هو وزوجاته عائلتكِ وحدك يا غنىٰ عساكِ أن تتركِ لنا غيداء ابنتنا، فلا يحق لك أبدا المساس بها وهي في كنفنا أو لم تكن".

دقات قلبي تسارعت بدهشة وقلق، وضعت يدي على قلبي عسى أن يهدأ اضطرابه الذي يؤلم للغاية، وسمعت صوت بلال يتحدث فنظرت إليه وإلى دهشته الكبيرة وهو يقول بما يخالف تعابير وجهه:

"أبي يقصد الإساءة بالفعل، أغربي عن وجهنا يا وجه الغراب أنتِ، لا يعجبني حديثك هذا".

-"بلال". قال أبي بتحذير يجعلني أنظر إليه بتخاذل، هل يحذره من التطاول عليها ويخشى جرح مشاعرها بينما مشاعري أنا في كل تلك الأحاديث تذهب للجحيم!

لم أنبس بِبنت شفة أتحرك بآلية كبيرة تجاه الوسائد على الأرض أجلس عليها ونظري معلق على السجاد فقط بينما يدي تتحسس قلبي بهستيرية عسى ألمه يخف.

وأمامي كانت غنىٰ تنظر إلى عمي نبيل بدموع كثيرة ووجه متورم من البكاء، وسمعت صوت أبي يحدث عمي نبيل بغضب:

"إنها ابنتي أنا يا نبيل وليست ابنة ذلك النذل، وأن كنت تريد التبرؤ مني لأجل تلك الزانية فأفعل أنا من أريد فعل ذلك لها، والله أن ديني فقط ما يمنعني عن وأدها".

سمعت صوت صفعة أخرى لكن تلقها أبي من عمي الذي تحدث بعدم استيعاب وسخط:

" أسحرت لكَ تلك الخادمة التي لا تنفك عن النظر لمن هم أعلى مقامًا منها، أتتحدث هكذا عن ابنة كريمة التي تُهيم عشقًا بها".

- "كنتُ ولم أفعل منذ ما خانتني، لكني حافظت على كل شيء بسبب مرضها".

شهقت بحرقة وكنت على مشارف البكاء مجددًا اسمع أبي يخوض في عرض أُمي بلا اهتمام ولثواني الصمت القاتل تسيد المكان، لكن اندفاع جسد خالي محمد إلى أبي قطعه، وصراخ خالي أرتفع بجنون يمسك أبي من تلابيبه وعمي يقف في المنتصف حائلًا بينهما :

"كيف تجرؤ بالتحدث عن أختي هكذا، كريمة أشرف من أمثالك يا معتصم أفق لنفسك ولم وضعت نفسك به، حسبي الله ونعم الوكيل بك وحسب أختي هو الله أيضا والله لسوف أريك لمن تقذف المحصنات بسفاهةٍ ودونية ! ".

توقف خالي عن الكلام يلهث بقوة وينظر إلى أبي الذي يبتعد ببرود، صرخ خالي مجددا وعمي نبيل لا يزال يمسكه يمنعه عن التقدم إلى أبي، وقبل أن يخرج أبي من الغرفة بتهرب كعادته أوقفه مراد الذي أفلت ذراعه بصعوبة من فهد، وتحدث قائلا بتوتر:

"أنا لا أعرف هل يجب على التحدث الآن أم لا... لكن حديثي بالتأكيد يهم".

توقف عندما رفع الجميع له أعينهم ومن بينهم أنا وأكاد أسقط من الهاوية وأنا أمرر يدي على صدري بعنف عله يهدأ قليلًا، ثم أردف مراد يجعلني أحبس أنفاسي:

"ابنتكَ لَم تفعل فاحشةً كهذا يا عم، أنا من حاولت الاعتداء عليها بمساعدة أُسامة، ولكني أيضًا لم أفلح في فعلتي فالشرطة جاءت وأخذتها بذنبنا، ولم يكونوا سوف يسجنوها حقًا إلا أن جاءت امرأة تدعي زهراء وادعت عليها بالزور وشهدت أنها كانت تفعل تلك الأشياء بأميركا أيضًا، وقدمت صورًا مُزيفة..".

نظرت حولي بِتشتت وضياع، قلبي يعتصرني ألمًا وجاهدت للحفاظ على أنفاسي من التوقف، أستمع بعقل شارد وتثاقل إلى براءتي التي جاءت متأخرة خمس سنوات عن ميعادها، وداخلي كان قلبي يردد بعنف أني بالفعل والله لم أفعل ...

14 || الحقيقة العارية

"لم يكن موقف تِلك السيدة قوي لكن الذي جعلها أقوى هو عدم مجيء أحد مِن أهل غيداء من أجل القضية والشهادة لصالحها، لم تأتوا سوي للمحاكمة ولم يطلب أحدهم شيئًا منكم ويخبركم أحدا لأن المحامي خاصتكم كان يعمل لصالح زهراء فمرت الجلسة على ذلك الحكم الزور...".

تحولت كل الأعين عليّ، فنظرت لهم بتخبط وأعين مغرورقة بالدموع، لكن لم يدُم الوضع على تلك الحال لأن فهد أقترب بسرعة من مراد يلكمه بعنف إلى الحائط فنزلت الدماء كالسيل من وجهه ولم يتوقف وهو يصرخ به بغضب ويستمر في تعنيفه بقوة ...

سوف أكون كاذبة إن لم أقل إن أجنحة نمت ليّ من السعادة مدافعة فهد عنيّ أمر جعلني أشعر بالانتماء والعزة أن أحدهم يأخذ بثأري، أصبحت ساديةً قليلًا بسبب تجربتي تلك أنا أُقر.

بلال وقف ينظر إلى أسامة بنظرات مثقلة محملة بالمشاعر التي لم أستطع فهمها، لكني وجدته يقترب من أخيه بسرعة قصوى ولدمه في صدره ثم تبعه بِلكماتٍ يكل له بها في كل جسده وهو يصرخ بحرقة :

"أنتَ أيُها الخسيس تخبرني كل يوم كالخِطل أنك تُحِبها، أي حبٌ مرضيٌّ هذا؟ أنت واعٍ أيها الجرذ عما فعلت مع ابنةِ عمكَ وتلك التي تعشقها بجنون ها؟!! هل ترضى على نفسك أن تكون ديوث ومُخنث؟ ".

وبغض النظر عن كل مشاعري المراهقة، لكني سعدتُ، بل شعور داعبني بقوة من داخلي عندما وجدت بلال يأخذ ليّ حقي من أخيه، وامتننت أكثر عندما وجدت وجه مراد تشوه من دمائه ولكمات فهد الذي دهشني من تحيزه ليّ حقًا.

شعرتُ أن ليّ عائلةً أستند عليها، وأصبحت بين يوم وليلة لستُ تلك الفتاة المنبوذة من عائلتها، أين أنتم من البداية يا جماعة؟

-"توقفوا الآن". صرح خالي بجهورية يجعلني أنظر له باستياء حاولت إخفائه، لكن عقلي قد وقف عندما وجدت عمي نبيل ينظر إليّ بنظراتٍ مشتتة والدموع متحجرة في ملتقاه يرسل ليّ اعتذارًا صامتًا.

لم أحتمل رؤيته هكذا أغض بصري عن أبي الذي كان ينكس رأسه أرضًا..

بعدما جلس ويجمع يديه حول رأسه وجلست بجانبه غنىٰ تساند أبيها الوهمي، -بلا شك- أنه يشعر بالحزن لكشف خيانة زهراءه، لكني كنت أشعر بشيء غريب حيالها في المدة الأخيرة بالفعل، على الرغم من صدمتي من الحقيقة العارية التي قالها مراد بكل هدوء لكن تلميحات مريم المُبطنة جعلتني أفهم ببطء في محاولة يائسة في إنكار الحقيقة.

وقفت بسرعة لكوني كنت أريد التقدم إلى عمي نبيل لكن الدوار هاجمني بقسوة يصفعني ويجعلني أدلك صادغي وأنا أغمض عيناي بألم، وعندما فتحتهما وجدت عمي نبيل يقف أمامي بنظراتٍ قلقة فابتسمت له بحنو أنظر إلى خالي الذي وقف وراءه بنفس القلق كذلك.

-على الأقل- ربي قد عوضني عن أبي بأبوين حنونين مهتمين مثلهما.

وفي ثانية كنت بين ذراعي عمي الذي عانقني بضياع يُربت على شعري بحنان العالم كله، وقال بأنفاس مثقلة ونبرة متحشرجة يحاول كبح دموعه:

"لقد علمت كل شيء بالأمس من بلال، أخبرني أنك لم تموتين وأن كل هذه تمثيلية كما أخبرني بحالتك الصحية المُتأخرة، أعتذر عن كل شيء يا صغيرتي، أنا آسف لكِ ولِمَ فعله ابني بك، وأنا كلي علم بأن آسفي لن يعيد لكِ سنواتكِ الضائعة".

ابتعدت عنه بتشتتٍ، حالتي الصحية؟ أيةِ حالة تلك؟

لم أستطيع سؤاله لأني وجدت نفسي داخل أحضان خالي والذي همس جانب أذني بخفوت:

"سوف أتى لكِ بِحقك ولو في فم الحوت يا وحيدتي".

همهمت له وكلي امتنان حقا لوجوده بجانبي، ثم نظرت بجانبي لأسال عمي عما كان يقصد لكني وجدته يقف عند أسامة الذي سالت الدماء من أنفه وجبينه، وقف أمامه عدة ثوان ثم صفعه بقسوة وصرخ بخيبة أمل وإحباط:

"لا رضيت عنك ولا رضي الله عنك يا أُسامة، ليوم تقوم الساعة يا بني! لا رضيت عنكَ ولا رضي الله رددتني مطأطأ منكس الرأس في وسط كنت أرفع رأسي بشموخ بكوني أباكَ، عارٌ عليك وعلى بذرتي الفاسدةِ بكِ".

شعرت بكل خوالجي قساوة حديثه، وارتعشت بعنف على نظرات أُسامة التي حطت عليّ، أعتدل واقفًا ينظر في عيناي بقوة وجراءة كسرها فهد الذي تقدم يدفعه للخلف ويقول بتوعد:

"أقسم بالله يا أسامة لو رفعت عينك على ابنة عمتي كريمة مجددًا، والله لأفقعها لك".

لكنه لم يسمعه وهو يبعده بقوة عن طريقه وتقدم عدة خطوات يقف في منتصف المجلس ولا يأبى بغنىٰ التي تتابع كل ما يحدث بدموع، نظر لي نظرة خاطفة ثم وجه بصره إلى أباه وقال بثقة ما زعزع ثباتي وقهرني حقًا:

"زوجوني بها".

نظرت إليه بضياع أقترب من خالي أكثر عله يبث بي الأمان، وكان كذلك فهو أحتضن ذراعي يقول -بصوت هادئ- وثابت:

"أين أصولك يا ابن السعود، هل تحلم أن أقبل بك زوجا لها أصلًا".

-"أنا أبيها وأنا ولي أمرها، من قال أني لن أوافق على هذا". صدح صوت أبي يجعلني أنظر إليه والصدمة تلجمني عن التفوه بحرف، احتدت أعين خالي وتصلب جسده لوهلة تحت يدي لكنه قال بسرعة وغضب:

"ليست ابنتك وحدك، بل ابنة أختي كريمة التي جلست تخوض في عرضها ولم تجف دمائها بعد، ومن أين لك الثقة بأنها ستقبل بوضيع مثله من الأساس".

-"هي ستقبل إنها تبادلني الحب، زوجونا وسينتهي كل شيء". قال أسامة وهو ينظر لي، و-للمرة الأولى- عندما رأيت وجهه شعرت بالإعياء والتقزز، شعرت أني لست بهذه الوضاعة كي أتزوج من شخص مثله، وقطع أفكاري صوت غنى الحاد المرتجف:

"لن ينتهي كل شيء".

نظرنا لها جميعًا فوجدناها ترفع سماعة الهاتف وتسترسل بهدوء في جلستها على الوسائد بمفردها:

"تلك القضية خاصة شقة نجد في حي العامري، نعم في السادس من مايو سنة ألفين وتسعة عشر، لقد وجدت مستجدات بها، كانت قضية محاولة اعتداء وترصد وتزوير في أوراق رسميـ...".

قطع حديثها أسامة الذي خطف الهاتف من يديها بسرعة يصرخ بسخط ويغلقه في وجه الشرطي:

"كيف لك يا نذلة، إنه يكذب أعطيني الهاتف".

لكنه قد تأخر بالفعل، فمن طريقة صراخ الشرطي بصوت قوي على الهاتف قبل أن يقفله جعلتني أتأكد أنهم سيتعقبون الرقم وفي غضون دقائق سوف تأتي الشرطة إلى المنزل لاعتقال الجاني، الذي هو أُسامة والسيدة زهراء ومراد الذي تراجع للخلف بقلق يحاول الهروب، وكانت يد فهد ما أوقفته.

بينما غنىٰ كانت قد سئمت بالفعل ووقفت مقابله تنتشل الهاتف بقوة رغم ارتجاف جسدها، وقالت بصوتٍ عالٍ وثقة مزعزعة:

"لا تقل تفاهات يا أُسامة، أنا أعرف كل شيء منذ اليوم الأول، عندما جاءت غيداء إلى المنزل وقد اصطحبتها أمي، أمي لم تكن لتفعل شيئًا كهذا مع ابنة الخالة كريمة إلا إن كان وراءها شيء قوي، وكان هذا أنت لأنها عندما شاهدتك تعرفها قلقت على مستقبلي المزيف معك... وتأكدت شكوكي عندما وجدت صورها في غرفتك كالمهووس ".

اقتربت أكثر منه تدفعه بيديها ليتراجع إلى الوراء وصرخت بقهر:

" كيف يكون حُبك لها ضعيفًا لهذا الحد، لحد جعلك أبكم عن مساعدتها ونجدتها من يد الشرطة حتى لا تجرى يداك إلى الأمر، بنذالةٍ وجبنٍ تهربت وأخذت سكوتها أداة للتبخر وجعلها تفعل ذنبًا لم تخطأ به، أنت من جعلتها خريجة المأدبة يا أُسامة!! ".

-" أصمتِ". صرخ بغضب عارم يقترب إليها أكثر مما جعل الجميع يتحفزون ومن بينهم أنا، أشار بسبباته إليها وأرادف بتحذير وجفاء:

" لا تقولين الترهات الآن، أنتِ تفعلين كل هذا لأني لم أنظر لك بجدية كما أفعل معها، لأن قلبي لم يعشقك كما هوس بها ويتم".

حديثه لم يعجبني، جعلني أشعر بالإشمئزاز والرغبة في الخروج من الغرفة بأسرع وقت.

غنىٰ نظرتْ إليه بضياع، لقد أحبته أو أعجبت به لكنها في النهاية تعلقتْ به وتعشمتْ في مستقبل يجمعهم معًا، لكنه يقابلها بالفظاظة والعبارات التي تكسر أي أنثى مهما كانت قوتها، فما برقة ونعومة غنىٰ !

تأفأفتُ بضيق وصوت مسموع جعل الأنظار تتحول إليّ وأولهم هو ينفك عن حصاره للمسكينة، رفعت عيناي لعمي الذي كان ينكس رأسه أرضًا خزيًا من ابنه، ومشهده فطر قلبي بالفعل.

تقدمت إليه بتثاقل وهمست بسخرية وقهر :

" لا تقلق يا عمي، الشرطة لن تفعل شيء سوي للسيدة زهراء بالطبع، مراد أخذ جزاءه عن نص القانون والحُكم العادل! أما ابنك لا أنكر أنه من دفعني متعمدا للذهاب إلى هناك بعدما عرفهم على صورتي لاصطيادي لكني في النهاية ذهبت بكامل قواي العقلية، وأخذت جزاء ذنبي، لذا؛ لا تخف".

قلت كلماتي أقترب من الباب بجسد متخاذل وظهر متقوس وكأني محارب قد خسر كل معاركه للتو، وقد كنت فعلت... على من أكذب؟ لا تغير معرفتهم للحقيقة بشيء ولا تغير توعدات خالي شيء، كل واحد بهم لديه حياة ومشاكل وعائلة وأبناء، ومهما كان حبهمّ لي لن يكونوا مثل مكانة وقرب أبي الذي لا يقبل بالاعتراف بي.

وفي زحام أفكاري قابلتني أعين غنى الحزينة المتأسفة، شعرت بها تعتذر بصمت عما فعلت منذ قليل ولم أفلح في الرد عليها، لستُ ملاكًا وهي تمادت.

-" سوف أذهب لإحدى صديقاتي القريبات، غدا سوف أتى إليك خالي على أن أحدثك عن بعض الأمور المهمة ".

لم أكن أعرف لمن سأذهب فعلًا، ولكني قلت بلا اهتمام استقبل صراخ خالي الرافض بقطع وكلمات عمي الصارمة وهو يخبرني أن أكمل ليلتي في بيته مثلما فعلت لكني فقط تهكمت بسخرية وتركتهم يصرخون أصيح مقابلهم بهدوء:

" حسنا سوف أستنشق بعض الهواء النقي بالخارج".

كنت أكذب ولا أهتم فعلا سوي بكلمة بسيطة من والدي لبقائي في منزلي القديم مثلًا، كنت لا أبلي بسواه ولكنه أنسحب من المشاركة في الحديث بعدما أستسلم وعاد للجلوس ينكس رأسه أرضًا ويعقد ذراعيه على رقبته ويبدو فعلًا أنه مُنخرط بالتفكير.

خرجت وقابلتني حِلكة الليل وظلمة الأجواء التي تبعث شعورًا موحشًا بقدر كبير، ذكرتني بمن أكون وبأن أماني الوحيد كان بين جدران المأدبة النسائية تلك.

لا نشعر بالنعم إلا بزوالها بالفعل، حتى أن بيت السيدة زهراء لم يعد مرحبا بي به بل والله إني لو رأيتها لسوف أذيقنها مرارةِ ما أذاقتني إياه، لقد فهمت كل شيء وكل تلك المسرحية التي سقطت بها.

لكن على ما يبدو كان فهمي ناقصًا، ودون أخذ نفس آخر وجدت يد تكمم فمي بعنف أسفلها خرقة قماش تلامس شفتي وأنفي حتى أستنشق مخدر بها كما جرت العادة في الأفلام والمسلسلات المبتذلة.

هل حياتي بذلك الإبتذال حقاً أم أن الحقيقة أنني وبكل قواي العقلية أصبحت أغرق بين الظلام مستسلمة لأيًا يكن اليد التي تلقتني، لخاطفي المجهول !

15 || السيدة زهراء

لقد سئمتُ.

مللتُ كل شيء يحدث من حولي، أشعر بالضجر لا بالخوف وقلة الطمأنينة، لقد سئمت مشاعري الجياشة وهشاشاتي في كل الصراعات التي مررت بها، لم أعد أشعر أنني أريد الشعور مجددًا.

برود أو تبلد ولا مبالاة ربما؟ لا يهم لقد سئمت حقًا.

نُزعت الخرقة من على عيني ليقابلني ضوء النهار الساطع، هل حقًا غبت عن الوعي عند خاطفي لكل هذا الوقت؟

عندما اعتادت أعيني على طبيعة الضوء فتحت فمي بدهشة، كانت سيارتي البيضاء التي لوثت بالدماء المزيفة تقابلني، في حديقة منزل السيدة زهراء.. يال السخرية هل حقًا اختطفتني؟

وجائتني الإجابة السريعة بدلو من الماء البارد الذي قذف على وجهي بقوة يجعلني أشهق وأشعر ببعض الدوار، يداي وقدماي مقيدتان بقوة وقسوة في الكرسي الخشبي الذي أجلس عليه، وتقابلني السيارة في نفس المكان الذي وقفت أمامها أنعى حظي قبل عدة أسابيع.

هل حقًا أنا مغفلة لهذا القدر؟ هل تخدعني الأعين البريئة والابتسامات الكاذبة التي تكون عبثًا تحت قناع البشاشةِ والطيبة، هل أنا شخص غبي لهذا القدر أم أني فقط أخفضت دفاعاتي بلا داعٍ.

كنت أجلس في وكر الأفعى الأكثر سمية ولم أعلم؟ يال خيبتي.

لم أقم بأي تعبير يذكر على وجهي، نظرت فقط وتأملت بتبلد، أشعر بشخص يقف ورائي وهو من ألقى بسطل الماء عليّ، لكن من يقف؟ لا أعلم.

وللمرة الثانية جاءت الأجابة على صوت السيـ.. أو عذرًا زهراء الكريهة تتحدث بلوم وتوبيخ :

" كم مرة قلت لكِ يا قمر إنتظريني، تلك أفعال لا تليق بفتاة راقية".

قمر؟؟

أختي!!

لا ليس لهذا القدر، لست بائسة لهذا القدر الذي يجعل قمر ترمي سطلًا من المياه عليّ، إنها بغاية الوداعة واللطافة، إني أحببتها وأحببت مشاكستها لدرجة لا توصف، بل إني فضلتها عن مريم.

وهل مريم مشتركة بتلك المسرحية أيضًا أم لا؟

تقدمت خطواتها لتقف أمامي، رفعت نظري إليها بفضول، هل سوف أرى تلك البشاشة مجددا أم ستكون غريبة علي بوجه زوجة الأب، لكنها لم تكن شيء من الأثنان، فأنا رأيت داخل أعينها نظرات حقد جدا واضحة.

بابتسامة متهكمة قد أستنذفت جم طاقتي وانا أرسمها بصعوبة قلت صوتي مبحوح :

" والله تستحقين جائزة الأوسكار يا عمة، أدائك مبهرًا".

ابتسمت هي بسخرية على مضض، ثم فتحت ذراعيها على وسعيهما وكأنها تريني المكان، وقالت :

" أنظري يا عزيزتي، أنظري أين أنتِ وما مقامكِ".

رفعت حاجبي، ولم تسمح لي بالتعليق تكمل :

" أنظري إلى عائلتك التي لا تريدك بينهم، أنظري وتأملي جيدا عسى أن يكون لديك ولو ذرة من الكبرياء وتذهبي من حياتنا إلى الأبد".

-" هل هذا حديثك أم حديث غنى؟". سخرت، فوجدت قمر تندفع من خلفي ممسكة بعصاة خشبية توجهها إلى عيني وتقول بغل كبير أدهشني حقا :

" لا تذكري اسم أختي على لسانك القذر يا عاهرة بيت السعود ".

وهنا لم أتحمل أكثر وأنا أصرخ في وجهها بقوة أدت إلى تشنج عضلات وجهي من كثر سخطي :

" أنا أيضا شقيقتك !!".

-" لستِ شقيقتها، قمر ابنة زوجي السابق صالح".

ببرود تحدثت زهراء تجعلني أنظر إليها بفم مفتوح على آخره ولم أتحكم في نفسي وأنا أصرخ مجددا بحرقة :

" ومريم؟ هل هي أيضا ابنة ذلك الوضيع؟؟".

وجدت العصاة بيد قمر تنهال على جسدي وكتفي ورأسي بوبالا من الضرب والشتائم التي تطلقها بلا هوادة، ولكني لم أتأثر مقدار ذرة ولم يجفل لي رمش، أعتدت على ما هو أقسى من هذا فلا بأس.

لم أجعل عيني تنزاح عن أعين زهراء التي بادلتني النظر بحدة وقسوة، شعرت بالرغبة في البكاء حرقة مع تزايد ضربات قمر قوة يدفعها الغل والحقد، لم أتوقع كل هذا من تلك الصغيرة التي خيلتها فضولية لطيفة وعابثة.

لكني جمحت دموعي أجز على أسناني بكره وأراقب زهراء التي ابعدت ابنتها تجعلها تذهب من الفناء إلى الداخل، ثم عادت ووقفت أمامي بهدوء ظاهري ولم تمهلني لحظة إضافية وهي تنهال على وجنتاي بالصفعات القوية القاسية.. لم يزيدها قوة سوي حقدها وغلها المتأصل بقلبها هذا، وكم ألمني عجزي عن التحرك كم كسرني قيدي أمام جبروتها.. وكم تمنيت فقط أن يأتي أحدهم وينتشلني بين أيديها ويربت علي بلطف ويربط على قلبي بحنان، حنان لم أتذوقه أبدًا.

ورغم صراعي الداخلي لم أصرخ، وجهي يلتف في كل ناحية مئة مرة حتى شعرت بتجمد الدماء في جسدي وتبلد عضلات وجنتاي ولكني لم أذرف دمعة واحدة، بكبرياء وأنفة، لا أستطيع البكاء أمام واحدة بحقارتها لتتشف بي .

وكل كياني يهمس بسؤال واحد.. لم تفعل هذا بي؟ وماذا فعلت لها كي أنال تلك الصفعات، ليس لدي أدنى ذرة علم.

تراجعت بعدما كانت شبه ملتزقة بي، تكيل لي الصفعات وهي تصرخ بقوة قد ألمت أذني، تراجعت تنظر لي وتنقل نظراتها بين المكان حولنا بهستيرية جعلتني أتيقن أختلالها العقلي.

-" لماذا لا تصرخين؟ هيا أطربي أذني بسماع صوتك القذر تصرخين؟!!!".

كانت هذه كلماتها قبل أن تنهال علي بوابلا من الضرب واللكم في كل أنحاء جسدي، ولم أعرف حينها هل جسدي بهذا الضعف أم هي قوية للغاية بالنسبة لسيدة مسنة تخطت الخمسون؟

تهاونت ضرابتها ببطء وجدتها تذرف الدموع بقوة وهي تقول بغصة عنيفة :

" أنتِ السبب في كل شيء سيئ يحدث لي ولفتياتي، من يوم ولادتك وأنا أعيش في حياة بشعة وسيئة أنتِ وأمكِ السبب في كل شيء".

لوهلةً شعرت بصدق كلامتها من حرقتها بالتحدث، شعرت بنفس الغصة التي تشكلت في حلقي، أستمع لها ترادف :

" لقد أحببت شخصًا واحدًا في دنياي، أحببتُ صالح الرجل البسيط الذي يشتغل في حراسة منزل أسرة غنية، لم أفكر في شيء سوي جوازي منه وقد تحقق وتزوجته وأجبرني حينها على العمل خادمة في قصر العائلة التي يعمل عندها، لكني لاحظت إنشغاله الدائم بسيدة من سيدات القصر، إنشغاله الذي لا يقتصر عن مراقبتها في كل فرصة تسنح له، إنشغاله بها وبجمالها أسفل النقاب الذي يسترق النظر إليه مُتعللًا بحجج واهية كرؤيتي مثلًا ".

كانت تتحدث وهي تنظر إلي بغل وقسوة، جعلني حديثها أفكر في مدى بشاعة شعورها تجاه زوجها المكترث لإحدى نساء عائلتي ولم يخطر ببالي قط تكملة حديثها الذي اردفته :

" وعندما لاحظ زوج السيدة إنشغال صالح بزوجته قرر فصله عن العمل نهائيًا وللتو كنت قد أنجبت ابنتنا غنى، من يعيل أسرة بسيطة مثلنا ورب الأسرة أصبح بلا عمل؟ وجدتني أتطوع وأخبره أني لن أترك عملي بالمنزل وهو رحب بالأمر ترحيبا شديدا رغبة في أختلاس النظر كل مرة يوصلني إلى المنزل ويرجعني منه، إختلاس النظر إلى أمك ".

شهقت بقوة، هل هذا حقًا يحدث أمامي أم إنني وقعت في مسرحية مبتذلة؟

-" عندئذ لم أحتمل شيء مما أراه أكثر، طالبت مواجهة زوجي صالح بكل ما يشغل باله وتمعنه في أمك دون دين ولا حياء، وجدته يشرحلي كيف أن الأمر أعمق من مجرد أنه يحبني، بل قال لي بكل عين وقحة أنه يحبني.. ولكنها هي نصفه الأخر! يتزوجني أنا ويقول عنها هي نصفه الأخر وتوأمه الروحي؟!! ".

ترقرقت الدموع في عيناي، لا يمكن أن يكون هذا حقيقي لا يمكن أن تكون حياتي بذلك الأبتذال وما قصة التوأم الروحية معي؟ إلا إنها أكملت تقول بثقة وفخر متخلية عن حسرتها:

" لم أحتمل ما سمعته حينها وطلبت الطلاق، كانت غنى قد تخطت الثانية عشر بالفعل، أخذتها واصبحت أبيت في ذلك المنزل عند تلك الأسرة التي دمرت زواجي وأخذت زوجي الحبيب، قررت الإنتقام من أمك التي لم تعرف شيء عما يكنه لها صالح، والانتقام كان بأبيك الذي رحب بالأمر بشدة كونه كان يمر بأزمة نفسية بسبب إنتقالك مع أمك إلى منزل جدتك بعدما حدثت مشكلة ما بينهما، إنتهزت فرصتي وأخذت بأغوائه بأحقر الطرق ليلتفت إلي وقد فعل وعقد الكتاب علي وقد أبتاع لي هذا المنزل بعدما طلب مني عدم مزاولة العمل كخادمة ".

معرفة خيانة أبي لأمي مع خادمة شيء ورغم قسوته إلا أنه يظل أحتمال متوقع حدوثه، أما وقاحة تلك الخادمة التي أصبحت زوجة أبي هو الذي لا يحتمل حدوثه.

لكن لا تعبير ولا ردة فعل قد صدرت مني وأنا أسمتع لتاريخ مسيرتها المهين، أرها تكمل بفخر وليس كأنها مجرد عاهرة :

" تزوجته وأنجبت مريم، لكني سرعان ما حننت إلى زوجي القديم وحبي الوحيد..".

قالت بحالمية جعلتني أتقزز، ثم أقتربت مني بخفة تقول هامسة جانب أذني :

" لقد خنتُ أبيكِ مع طليقي وأنجبتُ قمر".

-"أنتِ فاسقة كبيرة".

وهذا كان ردي عليها بهمس أنا الأخرى، فقط شهقة متفاجأة ما اخرجتها في البداية، لكني سرعان ما تمالكت دهشتي معللة أن كل شيء متوقع منها.

وقد كان، فهي أبتعدت عني بملامح تصطنع العبوس وقالت بمكر :

" يا الله، فتاتين ليسوا أبنائه يتمتعون برغده ونعيمه... بينما ابنته تعيش كالشاحذين".

لم يؤثر في حديثها ولو مقدار ذرة، ووجدتها تعود لملامحها الجامدة تركع مستندة على ركبتيها لتجعل وجهها مباشرة أمامي وقالت :

" ماذا سوف تفعلين يا حلوة لو أخبرتك أن خطة أنتقامي من أمك تشملك؟ تشمل مجيئك من ذلك وطن الفسق وكلام أسامة عن أصدقائه أمامك ودخولك السجن التأديبي لأكبر مدة ممكنة؟ ماذا لو قلت لكِ أنني من أجبرت أسامة حبيبك على خطبة غنى؟ بل أجبرته على عدم البوح لأحد أنك على قيد الحياة وعدم التحدث ببرائتك ولا زيارتك؟ ما رأيك؟؟ ".

ظلت تتحدث بتلوي، تتحدث وأنا أتصدع من داخلي، تتحدث وأنا أنصت بقلب محترق وعقل شريد.. أتلك السيدة زهراء حقًا أم إنني أتوهم؟

16 || أُحبك

أُسامة.

رعديدًا أم جبانًا ووغدًا كان؟ هل هو كافر بحبها وعهده أن يبقوا معًا أم أنه مضحٍ عاشق لا يقدر على التفريط في محبوبته.

هل تلك هي الحقيقة عن أُسامة فعلًا؟

لا أعتقد أنه بذلك التقهقر والتخاذل أبدًا..

فهو وقف كالصقر الجارح الذي اقتلعوا منه صغاره، قلبه منفطرًا في سؤالين هل صغاره خُطِفت؟ أم إنهم قرروا الطيران فجأة والاعتماد على أنفسهم بعيدًا عنه، حتى وإن كان يعذبهم ولا يعطي لهم طعامه... لأن الطعام به سما لكنهم لم يعلموا، يفتك بجسده حتى لا يموتوا، لكنه لم يعرف هو الآخر أن حرمهم من الطعام قد يقتلهم.

معادلة غريبة، لكنها ما يشبه الحقيقة.

صغار الصقر كانوا يتمثلون في غيداء التي لم يعلم عنها أحد شيء من ليلة أمس، بعدما ذهب بلال ورآها ليتفقدها ولم يجدها أبدًا.

العائلة كلها برجالها ونسائها ينعون حظهم وينعون ابنتهم، الحاضرة الغائبة طوال عمرها واليوم كانت غائبة لكنها حاضرة بأفئدتهم كلهم بلا استثناء.

وقف أسامة في منتصف الحديقة يضع يده على فمه وينظر إلى المكان حوله بقهر وفقدان أمل، كان ينوي أن يُخبرها كل شيء... كل الحقيقة حقًا لا ما هو مُجبر عليه، كان ينوي أن يكون أنانيًا ولو لمرةً واحدة بوجودها هي، لأنها الشيء الوحيد الذي يريد أن يحصل عليه بِتملك وعدائية، ولن يشاركها مع أحد أبدًا.

وضعت يد على كتفه بمواساة، التفت بظهره ليقابل وجه بلال الذي وقف بخزي جانبه، لكن أسامة أقترب منه بهلع وخوف وقال:

"هل حدث لها شيء يا بلال؟؟".

لكن بلال نفي برأسه مما جعل الراحة تتسلل لقلب أسامة الذي سأل مستنكرًا:

"إذًا ما ذلك الخزي الذي يعتريك؟ ماذا حدث ! ".

-"والله يا أخي... نشك أنها قد هربت عندما... عندما سمعت بعرض زواجك عليها".

كلامه جعل أُسامة يستشيط غضبًا مقتربًا منه يمسكه من ياقة جلبابه ويقول بتوبيخ وثقة مفرطة:

"غيداء لن تهرب مني، غيداء تصفعني أمام الجميع ولن يغمض لها جفن، هي صاحبة الحق يا أحمق".

لكن بلال أخفض رأسه أرضًا غير موافقًا على حديث شقيقه، ثم تمتم بعد ثوان بخفوت:

"لكنك لست الجاني الوحيد يا أخي... تلك زهـ...".

-"أُصمت... أُصمت يا بلال دعنا نجد الفتاة أولًا".

قال أُسامة بسرعة ينظر حوله بهستيرية وقلق، قلقًا من أن تضيع من بين يداه بعدما وجدها أخيرًا .

-"هل تعملون أين هي زهراء من الأساس؟".

صدح صوت دُرّة المستنكرة خلفهم، فنظر لها أبنائها بدهشة وقد صاح بلال وكأنه قد وجد ضالته:

"يا الله كيف نغفل عن شيئًا كهذا؟ من المُفترض أن الجميع عرف بشيء من حقيقتها بالأمس، ألم تكن بالمنزل عندنا لواجب العزاء؟ لو جائت الشرطة بالأمس لكنا تذكرنا أمرها".

وكأن كلامه أيقظ نفس أسامة الذي هرول بسرعة يصرخ لهم:

"سوف أذهب إلى عمي المعتصم، إدعي ليّ أن ألقها يا دُرّة".

نظرت درة لظهر إبنها بامتعاض، ثم وجهت نظرها إلى بلال الذي إدعي انشغلاه بتأمل السماء حتى لا ينال توبيخهها، لكنها لكزته في كتفه بقوة وقالت:

"بلال أنظر إليّ، هلا قُلت لي كل شيء من يوم جائت غيداء إلى السعودية؟؟".

***

الأمل، هل يمكن أن يتولد الأمل في لحظة كتلك؟

الأمل أنه لا يزال أسامة الذي أحببتُه، الأمل أنه كان مُجبرًا وليس مُخيرًا.

لكن هناك صوت داخلي يصرخ ويقول لًا، إن كان يريدني لكان سوف يفعل المستحيل مِن أجلي، لكان سوف يثبت برائتي ويتمسك بي بعدما رأني، لو كان فقط يحبني لكانت السماء قد طبقت على الأرض لألا أبيت ليلة واحدة في مكان كذلك السجن.

-"لقد دفعت أُسامة لأصدقاءه أصحاب بيت الفِسق، دفعته إليهم ودفعت لهم أموالًا كي يصادقوه، والأمر لم يقتصر على فتيات ليل ومشروبات محرمة كالخمر وغيره، لم يقتصر الأمر عن المعازف بل دفعتُ لهم كي يذيقوه المواد المخدرة وهو بفضلي أصبح مدمنًا ! ".

شهقت، أشعر بحنجرتي تقفز خارج فمي من قوة صدمتي، كانت تتحدث وهي مبتسمة باختلال جعلني أرغب بالتقيؤ وتلك المرة لم أتحكم في دموعي التي طهرت وجهي قليلًا من دماء كانت به لأن وجنتاي أحترقتا عندما نزلت الدموع عليهما.

أردفت بسرعة تقول وهي تنظر إلي ساخرة:

"لا تقلقي يا عزيزتي لم أكن لأزوج ابنتي مدمنًا، لقد جعلته يذهب إلى مصحي نقاهي ليتعاجل من سموم جسده ولم يذهب إلى بريطانيا لأحياء ذكراكِ كما إدعوا".

قالت آخر كلامها بإستهزاء جعل دموعي تزداد أكثر بقهر، وقهري وحسرتي يفقون مقدار ألمى الجسدي وفقري للطعام الذي لم أتذوقه من يومان أو ثلاثة.

-"أنا من أبلغت عليك بعدما دفعته لجعلك تأتين عند أصدقاءه بأي ثمن كان، وكان مقابلة دفعة لذيذة من نوع جديد من المواد المخدرة، لم يكن يعلم أني زوج عمه حينها، وكنت قد أرسلت صورتك لإصدقاءه هؤلاء واسمكِ بها حتى يتعرفوا عليك عندما تذهبين لهم ويتم الأمر كما أريد...

تعلمين قد ندمتُ قليلًا على تسرعي بالإبلاغ قبل ما مراد يفعل فعلته، لكني عوضت هذا لاحقا بعدما شوهت صورتكِ الجميلة في أعين والدتكِ الحمقاء وأبيكِ الذي كان يصدقني لكنه أول ما رأك ذهب وأرتمي في أحضانكِ".

مع كل كلمة كانت تهمس بها كان الألم ينغز قلبي وشعرت معها بضيق شديد يأكلني من الداخل، لكنها لم تكتفي تُضيف بعبث:

"منعت أُسامة عن التحدث بشيء بطرقي الخاصة، وهددته بفضحه وفضح كونه مدمن، كان سبب كافي لإسبوع واحد لكنه لم يتحمل عندما رأي تلك السيارة... تحفتي الفنية التي أقترحت على والديكِ التطوع لرسمها حتى تكون الحادثة مقنعة للعائلة.."

قالت مبتسمة بشفقة وأعين خبيثة تُزِيف البراءة، ثم أسترسلت سردها :

" يا الله حينها وجدته يصرخ علي حتى أتنازل عن شاهدتي السرية ولكني رفضت وجعلته يذهب مجبرا إلى المصحي، وهناك أمضي سنتين كاملتين، لم يكن يتعالج هناك بل كان يوجد من يهرب له المخدرات فلم يوجد له تحسن".

وعلى الرغم من كونه كان مجبرًا لكنه لم يحاول من أجلي في تلك المصحة، لم يسهم في إنقاذي بإنتشال نفسه من صومعة الضياع تلك، إنه غاص داخلها في شبه محاولة للإنتحار.

كنت قد فهمت أغلب الأحداث التي فعلتها الأفعى أمامي، كانت تدفع هؤلاء الأشخاص التي لا يندرجون تحت بند الأصدقاء تجاه أُسامة، قبل أن تظهر للعائلة كزوج أبي حتى.

أستيعاب أن هناك شخصًا بقذارتها شيء لا يصدق.

وهي لم تتهاون على تلويث عقلي بخطاياها مكملة بينما نستند على إطار السيارة الأمامي:

"بعدما فاق على نفسه في سنته الثالثة لم يكمل سوى ستة أشهر بالتعالج بإرادة قوية ثم عاد إلينا، أو إليّ لتهديدي وإخباري أنه سيذهب ويفعل أي شيء ليخرجك من ذلك المركز، لكنه كان مغفلًا فقد كنت تمكنت منه ومن أموال أبيه، لا يخصكِ هذا الأمر لمعرفته لكنه هددته بإفلاس عائلته وعندما لم يستجب بشكل كلي هددته أني سأؤذيكِ في السجن لذا؛ ترك الأمر وبعد سنة أخرى طلبت منه خطبة غنىٰ بضغط من أهله ومني، وافق مجبرًا يا خسارة!"

تتحدث وكأنها تملك العالم بأسره، تتحدث وكأنها لم تُدمر حياتي وجعلتني تعيسة إلى الأبد، تتحدث وكأنها صاحبة الحق، ما ذنبي وذنب أمي بكل ما يحدث؟ وعند ذكرى لأمي تذكرت حديثها الأخير معي بالمشفى، كانت تقصد به زهراء تلك العاهرة.

خرج صوتي -لأول مرة- قويًا رغم اهتزازه، أجيبها بثقة لا تتماشي مع دموعي التي تأبى التوقف:

"وماذا فعلتْ لكِ أمي لأجل ذلك الانتقام العظيم؟ ماذا فعلتُ لكِ أنا؟؟ ".

-" لأنها أخذت زوجي مني !! ". صرخت بغضب كبير وسخط، جعلتني أجفل.

-" وأردتُ أخذ كل شيء يخصها بالمقابل، أخذت الأموال والبيت والأملاك كلها أصبحت باسمي أنا واسم ابنتي غنىٰ، العائلة وأخذتها منك وأخذت حبيبكِ الفارس المغوار، أخذتُ سنين عمركِ يا غيداء وأخذت فرحة أُمكِ بكِ ".

مع كل كلمة أخرجتها كنت أشعر بِمقدار الكره والضغينة في صوتها، مع كل نفس تتنفسه ونظرة نظرت بها نحوي كنت أرى الحقد الذي يشع من عينيها، مقدارًا من الحقد لم أراه في عمري ولا أقدر على استيعابه.

وقفت تنظر حولها في حزم، ثم تابعت تقول بينما تذهب لجلب شيء من خلف الأشجار:

"واليوم سوف أخذ روحكِ بيداي هاتين".

و-بالفعل- اقتربت تمسك بمعول ثم فأس يشحذ به الزرع على ما أعتقد، في بغاية لقسم رأسي نصفين أو فصلها عن جسدي لا أعلم، لكنني استقبلتها بصدر رحب وبتخاذل واستسلام.

هي تريد أن تنهي حياتي؟ فل تفعل ما تشاء يكفيني ألمًا وحقدًا وكره، يكفي ما كابدته من معاناة ولم تنتهي حتى الآن.

انتظرت أن يضرب الفأس رأسي، وانتظرت كثيرًا مغمضة العنين، لكن لم يوصلني أي شيء ففتحت عيني بتمهل أرى جسد زهراء الممسكة بالفأس متجمدًا كالصخر تنظر لشخص ما خلفي.

هل حقًا حياتي تستحق كل هذا الدراما؟ فلتقتني وننتهي، نقطة والنهاية.

لكن مريم التي وقفت خلفي لم تشاء هذا، تحدثت بصوت مبحوح أعرفه تمام المعرفة، لأنه كان مصحوبًا بِغصة مثل التي وقفت في قلبي:

"هل أنتِ حقًا يا أُمي فعلتِ كل هذا؟".

استشعرت من صوتها بحة بكاء أو دموع على وشك الانهمار، بينما كانت زهراء تنفي برأسها بسرعة وهيستيرية وهي لا تزال ممسكة بالفأس، إنها الحقيقة العارية يا عزيزتي.

-" لا يا ابنتي أنت فهمت الموضوع بشكل خاطئ، لا شيء كنت أكذب اسمعيني...".

-" الكذب ليس من شيمكِ الفاسقة يا زهراء". قلت -بصوتٍ خافتٍ- يكاد يسمع، فنظرت ليّ المدعوة بِسخط تحكم إمساك الفأس بيديها وترفعه للهواء استعدادا للقضاء على:

" لا تتحدثي يا عاهرة، لا تتحدثين وإلا لقطعت رأسك في هذه اللحظة".

-" زهراء.. ". همسة خفيفة حملتها الريح لتخبرني أن لا يزال هناك أمل.

شعرت بتوقف الزمن من حولي استمع بِقلبٍ تائه إلى صوت أُسامة الخافت اللاهث والذي تبعه يمين قطعه أبي بِصوت مقهور وواهنًا:

" أنت طالقٍ بالثلاثةِ يا زهراء وتُحرمين على بعد هذه اللحظة".

لم أستطع رؤية تعبير وجهها فبعدما قال أبي حديثه قامت زهراء بلف الكرسي الذي أجلس عليه ناحيتها وأخرجت من جيبها سكين حاد وضعته على رقبتي بسرعة لم أستوعبها.

وهكذا كان المشهد أواجه أبي وأُسامة الذي يبدو أنه يقف على حافة الجنون وبجانبهم كانت مريم التي تبكي دون توقف، بينما على رقبتي سكين زهراء الحاد يغرز أكثر في عنقي مُسببًا خيط رفيع من الدماء.

-" تراجعوا، تراجع يا معتصم عما قلت الآن وإلا نحرت عنقها وأنا لا أُهدِد".

قالت بجنون تستمر بالضغط علي السكين أكثر ليغرز في رقبتي، وقف أُسامة يمد يديه إلى الأمام بحذر وهو يقول محاولا جعلها تتراجع:

" لا شأن لها في شيء يا زهراء، اتركي الفتاة الآن وسوف نتفاهم جميعًا".

لكنها قابلت حديثه بالنفي تردده بخفوت وسرعة، وأبي كان لا يقل هلعًا عن أُسامة، بل أخذ يقترب إلينا يتمتم:

" زهراء إن لَم تتراجعي الآن عما تفعلين والله لن ترى ضوء النهار مجددًا، اتركي ابنتي هيا".

-" لن أفعل يا معتصم، والله لن أفعل وسأنحرها لك أمام أعنيكَ هُنا ".

-" أُتركيها ليّ !! لقد أخذتي كل شيء مني وأصبحت بلا شيء سواها هي، أريد غيداء أرجوكِ أني أريد حبيبتي، أُتركيها !! ".

لكنها لم تستمع لكلمات أُسامة الذي تقطعه شهقاته ودموعه المنهمرة، بل زادت بالضغط على عنقي بسكينها، وتوسع خيط الدماء أكثر ليجعلني أشعر بالدوار الشديد وببواشر الإغماء، فبدأ العالم يتصدع من حولي وحل محل الأشجار والسماء السواد.

-" غيداء لا تفعلي، لا تفعلي". كان صوت أُسامة الصارخ الذي يصل ليّ كهمساتٍ خافتة، لكن ماذا أفعل عيناي تنغلق بالفعل وقد حان وقت الاستسلام، أني أعلن هزيمتي النكراء.

شعرت به يهرول على الأرض حتى وصل ليّ يدفع زهراء إلى الخلف لتسقط وتتركني، وكان أخر ما قابلني هي عيناه القلقة والمتلهفة، مما جعلني لا أكتم في نفسي تلك الكلمة التي من الممكن كونها الكلمة الأخيرة التي سأنطقها في حياتي:

" أُحبكَ".

ومن دون حبه لا أعيش، فأغلقت عيناي بهزيمة لأني أعلم أنني لن أحصل على ذلك الحب أبدًا، فلا ليّ عيشةً ...

17 || عزاء قلبي

وجهة نظر الشخص الثالث

في الرياض، ذات النسائم والهواء المعاصر، الأحياء الراقية والعائلات المُهندمة، وداخل أحد أرقى أحياء الرياض في منزل كان يشع دومًا بالحياة مهما تعددت مصائبه... كان في ذلك اليوم المنزل يشع بالصمت القاتل والوجوم على أوجه جميع أفراد المنزل.

النساء متشحات بالأسود القاتم، لا يُسمع صوت في القاعة الكبيرة سوى صوت قارئ القرآن ولا يخلو من بعض البكاء الصامت لنساء ينعون المتوفاة.

هكذا وبعد انتهاء عزاء السيدة الأولى جاء الدور على السيدة الثانية وكأن ذلك الجبل الشامخ المعتصم بالله حان الوقت كي يتصدع بعد مصائبه الكبرى التي حلت على رأسه تِباع.

في صِوان العزاء الخاص بالرجال لم يقلُ الوضع حزنًا، فوقف فهد منكس رأسه ويجاوره أخوه مصطفى ويقف بجانبه بلال وشعور الغم يعم قسمات وجهه، يأخذون واجب العزاء ثلاثتهم فقط، فرجال العائلة الكبار وبينهم أُسامة كان لديهم همًا أكبر ووكسةً أشد ألمًا.

همس فهد بغل وحقد إلى بلال خلف ظهر مصطفى:

"ماذا سوف تفعلون يا أخي؟ ألا يوجد قصاصًا حتى !! ".

نظر إليه بلال نظرة خائبة وهو يقول بخفوت:

"لَا، هي قد نالت قصاصها يا فهد وانتهِ الأمر، لا تُردد حديثك على أُسامة يكفي ثورته ولا ينقصنا ألمًا في الرأس".

-"إنه ألمًا حقًا يا أصدقاء، كالبركان الخامد الذي تفجر بعدما حدث ما حدث لغيداء التي لازلت مندهش من كونها لم تَمُت وعادت للموت مجددًا، هل كان هناك شيء بينهما ؟ ". تدخل مصطفى بقوله العابث، مما جعل فهد يرمقه بنظرة قاتلة وهو يقول بسخط:

"لقد كنتْ طفلًا حينها، طفلًا فلا تتدخل في أحاديث الكبار".

نظر إليه مصطفى بلا مبالاة يعتدل في وقفته ويصافح الرجال المتوافدون بالخارج بوجهٍ ثابتٍ.

أنسحب بلال من الصِوان بخطوات مسرعة يسمع تذمر فهد لكنه لم يكترث إليه وشق طريقه إلى غرفة أخيه، وكأن حديث فهد أشعل شرارة في عقله والشرارة كانت أُسامة.

طرق طرقتين على الباب ليصله الرد بعدم الدخول، لذا؛ دلف بسرعة لتقابله الظلمة الكاحلة وجسد أُسامة الكبير الذي تكور على الفراش بوضعية الجنين وبشكل بائس يثير شفقة أي أحد.

-"أنتَ يا أخي، ماذا تفعل هُنا هناك عزاء ينتظرنا !!".

قال بلال بصوت محبط وعدواني تجاه أخيه الذي يغلق على نفسه حتى بعد مرور أسبوع كامل على هذا الحادث، لكن الجثمان قد دفن بالصباح بعدما خرج من المستشفى لذا؛ اليوم هو اليوم الأول في العزاء.

وصلة صوت أخيه الأجش والعميق قائلا برفض:

"لا يا أخي، هل تنتظرني حقًا آخذ عزائها؟

كان من المفترض أن يكون هذا عزائي أنا أو -على الأقل- أذهب معها !".

-"هل غيداء ستكون سعيدة بهذا يا أُسامة؟ لقد قلتُ أنها اعترفت مجددًا بِحبها لكَ قبل أن تغلق عينيها للمرة الأخيرة، هيا يا أُسامة أرجوك تعال".

توسل بلال بشدة، وقد نجح في استعادة تركيز أسامة الذي انتفض على ذكر غيداء، وأعتدل في جلسته قائلًا بغضب:

"ليحرق الله تلك الشمطاء في نار جهنم، لا سامحها الله ولا أنا سامحتها".

-"غنىٰ أيضًا لا تترك فرصةً للنواح والبكاء، بينما تلك الفتنة المتحركة التي تدعي قمر تسب من تشاء وتردد بهستيرية أن أُمِها لا تزال حية، ماذا سوف نفعل بهم هؤلاء وعمك يتقوقع في غرفته المشتركة مع خالتي كريمة رحمها الله، حتى وصلني خبر أن طلق زوجته الثالثة!".

أسترسل بلال في التحدث يفتح ضوء الغرفة ليجعل أُسامة يجعد حاجبيه ويغلق عينيه بألم، ثم أقترب إلى أخيه يجاوره الفراش ويعانقه بحب وهو يُردد:

"سامحك الله يا أخي، لقد أشعلتَ قلبي".

ربت أُسامة على ظهر أخيه بحنان يبادله العناق، لطالما كان بلال هو خليل أسامة الوحيد المؤتمن، أصبح بالنسبة له أخيه وصاحبه الوحيد، وهذا يعود لصدمته في أصدقاءه فلم يعد يختلط بالكثير إلا تحت إطار العمل أو ليكونوا من رجال العائلة.

-"العائلة كلها يا أخي أصبحت تعرف بأمر إدمانك، وكلهم عرفوا حكايتك مع زهراء وغيداء...".

تمتم بلال ولا يزال يعانق شقيقه، ليهمهم إليه الآخر بلا اهتمام وهو يقول:

"لا يهمني شيء بعد الآن يا بلال، المهم أن تعود ليّ حبيبتي بخير وينتهي كل شيء إن شاء الله".

فصل بلال العناق يبتعد عنه وينظر إليه بحنق وهو يردد صارخًا:

"أنظر إليك تقول حبيبتي ثم تتصومع على نفسك في غرفتك كالرهبان منذ أسبوع، هل تعرف من الأساس تفاصيل حالتها الصحية أم أنك تدعي الاهتمام؟".

أبتسم أُسامة بهدوء ينفي برأسه، وقال وهو يمسح على شعر رأسه بخفة:

"حالتها مستقرة، لكنه استقرار يجلب الغم يا أخي، الأطباء يقولون أن كل مؤشراتها الحيوية بخير وحالتها الصحية أصبحت معتدلة بعد عملية استئصال الورم الخبيث، لكنها داخل الغيبوبة برضاها، تهرب من الواقع الذي كانت طوال عمرها تجابهه كاللبؤة".

ربت بلال على كتف أخيه بمؤازرة وقال:

"متى سوف تذهب إليها مجددًا؟ جميع العائلة زارتها حتى غنىٰ ومريم، لكني لم أفعل هل يمكنني المجيء معك والنظر إليها خلسة كلص يسترق النظرات؟".

كان يشير بحديثه إلى أفعال أخيه والتي قامت نسمة ابنة شقيقة السيدة كريمة بأخباره بها، و-بالفعل- كان أُسامة يخجل من الدخول لغرفتها وينتابه الخزي من أن يظهر أمامها مجددًا ريثما هو السبب في كل ما حدث لها.

قاطع شرود أُسامة بلال الذي أردف بهدوء وحكمة:

"الجميع يستحق فرصة ثانية يا أخي، وأنت أول من يستحق تلك الفرصة...".

وكان أُسامة يتمنى، بل يدعو ويصلي كل يوم للحصول على تلك الفرصة والرجوع لحبيبته الوحيدة والاعتذار، لكنه يعلم أن ما فعله لا يندرج تحت المسامحة، فهو قام بوقف حياة الفتاة لخمس سنوات كاملة وكان يعلم كل شيء لكنه لم يتحدث الجبان ...

ومن زحام الأفكار أنتشله بلال مجددًا يقول بثقة وتحذير:

"أسمع أنت أُسامة آل سعود يا بُنِي، لا فتاة في المملكة العربية لا تحلم بك زوجًا لها، ولا تفكر أن بتكتمك على الأمر أنك رجل جبان أو أَكْهَى لا سمح الله، أنتَ شجاع يا عزيزي شجاع لدرجة ضحيتْ بالفتاة لإنقاذ عائلتك".

قام أسامة بإلقاء الوسادة التي بجانبه في وجه أخيه الذي تفاديها بسرعة يخرج له لسانه ويغيظ به، وهكذا أصبحوا من رجال مهذبين وراقيين إلى طفلان بالروضة يتشاغبوا ويتشاجروا مع بعضهم في حرب لقذف أي شيء أمامهم على بعض.

-"شجاعًا لدرجة أني ضحيتُ بالفتاة ها؟". قال أُسامة بأنفاس لاهثة يلحق ببلال وفي يده جهاز التحكم عن بُعد، بينما الآخر أخذ يركض ويضع في فمه طرف جلبابه ويتمتم بخوف زائف:

"يا بُني أقول لك أنك شجاع، أسد أسد".

***

-"عمركَ أصبح ستة وثلاثين عامًا اليوم، هل تعتقد حقِا أنك لن تخطفها وتعقد قرانك عليها وتنجبون بسرعة قبل أن تشيخوا وبعدها تتصالحون؟".

هكذا تحدث نبيل، والد أُسامة الذي بدوره وقف بثياب مهندمة وفي يديه باقة من الزهور الحمراء ينظر بأمل إلى غيداء التي تتسطح على نفس الفراش في المستشفى.

-"لتستيقظ أولًا يا أبي، وسوف أخطفها أعدك".

لقد مرت أشهر منذ ذلك الحادث، مضت عشرة أشهر وهي لا تزال غافية ترفض أن تنظر إليه بعينيها الحبيبة وتأبى أن تخمد نار الشوق داخل صدره الذي يشتعل ألمًا وندمًا كلما يراها.

توفيت زهراء أثر نوبة قلبية شديدة، كونها تعاني من مرض القلب المزمن، والمفاجأة بطلاقها ومجيء الشرطة بغية اعتقالها بعد ذلك قد أدوا بها إلى صدمة ونوبة قلبية، لم تموت سريعًا بل تعذبت لأسبوع في المستشفى تحت حراسة الشرطة فعلم الجميع كونها معتقلة، بعدها رحمها الله من ألمها بشكل مؤقت، فلا نعلم بعد هل زارت الجحيم إلى الأبد أم أنها فقط رأته من بعيد؟

بينما غيداء الحبيبة، لم تحتمل كل ما حدث وغفت كالأميرة النائمة، وهو أنتظرها بصبر وشوق ولم يستمع لكلام الأطباء الذين قالوا له أنها لن تستيقظ قبل سنوات، بل تجاهلهم جميعهم ولم يهتم بأحد سواها.

أصبح كل يوم يأتي لزيارتها وتطور الأمر معه بعد حديثه إلى بلال وأصبح يتقرب أكثر منها ويدلف الغرفة ليستنشق عِبق رائحتها في المكان، كان نظامه اليومي يبدأ بها هي وينتهي عندها أيضًا وفي بعض الأحيان ينام على الأريكة في غرفتها.

عمه ندم أشد الندم، أصبح شديد الشحوب ووجهه ذابل كذبول الموتى، أحتضن ابنتيه مريم وغنىٰ التي كانت تعتبر أبيها ميتًا منذ ما تخلي عنها، لكن قمر المتمردة قررت أن تذهب وتعيش مع أبيها الفقير الذي سرعان ما أرجعها إلى بيت عمه معللًا أنه لا يتحمل تكاليف معيشتها، ولكن عمه لم يرضى بالأمر وأعادها لأبيها من جديد وأخبرهم أنه سوف يدفع إليهم راتب شهري لكن لا تدخل المنزل، عكس غني الذي رغم كل ما فعلته في غيداء إلا أنها تظل نقية ليست بذلك الحقد داخلها التي تجرعته قمر كؤوسًا من زهراء.

العائلة... كل العائلة يتحدثوا عنها، اسمها أصبح ذكرهم ومسائهم، نسمة تأتي لتفقدها بين كل مدة والأخرى حتى أنهما أصبحوا صديقتين من طرف نسمة فقط بالطبع، غنىٰ تأتي بشكل شبه يومي وعلى رغم تعاملها الجاف مع أسامة كل ما تقابله إلا أنها بدأت في التأقلم ومعرفة أن ما تكنه لأُسامة ليس أكثر من مجرد تعلق وإعجاب، كما أن مشاعرها أخذت في الانجراف نحو شخص أخر... وهو مصطفى الذي كان يحبها سرًا ولم يقرر الإعتراف سوى متأخرًا كونه أصغر منها عمرًا.

فهد في كل حين يسأل عنها متصنعًا عدم الاهتمام لكن أسامة يعرف أنه يهتم وما يثبت هو مراد الذي كلما غضب فهد ولم يهدأ يذهب إلى بيته ليخرج به غضبه فيخرج الرجل من تحت يديه مثل الجثة الهامدة، ودعونا لا ننسى أن فهد لم ينسى أسامة وفعلته أيضًا بل كان يخرج به غضبه وسخطه من كل حين لأخر والأخير تقبل أفعاله بصدر رحب، عله يخفف عن نفسه عبء الألم بوجعه واشتياقه.

السيدة دُرّة وجدة غيداء من أُمِها وعمتها جواهر وجميع نساء العائلة، لديهم يوم مخصص في الأسبوع للجلوس عندها والتحدث وكأنها معهم، فلا تخلوا المستشفى ذلك اليوم من أصوات ثرثرة النساء.

كل شيء كاملًا يصبح ناقصًا بغيابها هي، يا ترى متى يا غيداء سوف تشفقين علينا وتفتحي أعينك الغالية على قلبي؟

هكذا فكر أُسامة يعدل ربطة عنقه الأنيقة ويدلف إلى الغرفة بخطوات رزينة وهادئة، تبعه أبيه يبتسم بمكر وحماس وكان محمد خال غيداء معهم وعلى يديه صغيرة جواد الذي كبر بشكل أسرع وتطور

نموه بسبب سِنه الصغير.

أقترب أسامة من فراش غيداء يضع على الطاولة بجانبها الزهور بهدوء ثم تراجع بسرعة عدة خطوات إلى الوراء جعلت الرجال تنظر إليه بعدم فهم ودهشة مصطنعة من جهة نبيل.

لكنهم ما إن اقتربوا سقطت أفواههم من الدهشة والفرحة، نظروا لبعضهم البعض وتسابق نبيل ومُحمد إلى فراش غيداء التي كانت تنظر إليهم ببلاهة.

لم تحرمه عزيزته من عينيها، لقد عادت حبيبته عادت من جديد !

لكن هل يا ترى سوف تقبل به زوجًا؟ هل ستسامحه بعدما فعل ما فعل ؟

أفكاره أخذت تسابقه وشياطينه بدأت في الوسوسة أنها لن تغفر بسهولة، لكن ماذا يفعل قلبًا عاشقًا قد أقاموا عزاءه بعدما ذهبت وتركته شريدًا من دونها؟

الأفكار الرتيبة تركت عقله عندما سمع اسمه بهمس محبب من بين شفتياها، أقترب منها بلهفة وأمل عاد وبقوة ليزرع داخله يسمعها تناديه، شغرت الغرفة فجأة ولم يوجد غيرهما، نقل نظره بتعجب إلى أبيه فوجده يقول من خلف الزجاج مبتسمًا بسمة خبيثة:

"رؤيتك الشرعية يا بُني، هيا بارك الله فيك".

كان نبيل يعلم أن غيداء أستيقظت منذ الصباح، لم يأتي أُسامة ليعلم فكان منشغلًا بتجهيزات زفاف فهد، ففكر نبيل في ترتيب لقاء خاص لعشاق العائلة، رغم أنف محمد وتردد المعتصم.

تذكر نبيل خطته معتدلًا يلصق إذنه في الزجاج لإستراق السمع ومعه كان محمد أيضًا الذي نظر إلى نبيل بغيظ وقلده فيما يفعل.

كتم أُسامة ضحكاته عليهم بصعوبة لينتشله صوتها المحبب وهي تقول على استحياء:

"أُسامة ماذا تفعل هنا وما هذه الثياب الفخمة التي ترتديها ؟".

نظر إليها وتعمق في عينيها البنية الجميلة ثم قال كالمهووس شاردًا:

"اليوم زفاف نسمة وفهد، تعلمين لقد عقدوا القران فقط ...".

صمت وكأنه سوف يسترسل في شيء فهمهت له غيداء تحثه على التحدث، لذا؛ أكمل يقول ببلاهة وحب:

"إذا بما أنك هنا والآن استيقظت، ما رأيك بجعل الزفاف مزدوج... لنقيم عزاء لقلبي الذي سقط لك في يوم مولدي -على الأقل-...".

- "أهذا هو عيد مولدك؟ لقد جاء بسرعة حقًا". قالت غيداء بعبوس لطيف فقهقه أسامة يهمس بصوت لم يصلها:

"على بركة الله إذا".

قالها بحماسة وفي داخله يقين أن كل شيء قادم سيكون بخير طالما هو مع غيدائه العزيزة، وقد أقسم في نفسه أنه لن يجعل تلك الفتاة وأبيها يبتعدون عن بعضهم بعد كل ما حدث بل سيفعل قصارى جهده لإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية، لكن ليأخذ غيدائه أولا ويفكر في شأن أبيها الذي يصارع لإعادة حياته مجددًا بعدما ظلم كريمة بسبب وسوسة الشيطانة زهراء...

النهاية || يتحدثوا عنيّ

بعد مرور أربعة أشهر إضافية، يوم مولدي ويوم زفافي عليه.

أليست الدنيا حقًا غريبة، الأيام متقلبة والساعات والبدايات والنهايات، لقد بدأت قوية متحمسة وصغيرة للحد الذي يجعلني ساذجةً جدًا، وعدوتُ في حياتي ومنتصف عمري شريدة وتائهة، حتى وصلت أنني أصبحتُ منبوذةً من عائلتي لدرجة أنهم قالوا إني مُت، كنتُ مجرد سجينة لمركز تأديبي بِتهمة تقتل كبرياء أية فتاة.

لكني اليوم أختم سطور النهاية، أقف ممسكة يدًا بِيد وذراع بِذراع لذلك الذي غفر ليّ قتلي لقلبه بحبي، ذلك الذي غفرت له، نسيتُ وتناسيتُ لأني أعلم والعالم كله يعلم ما أكنه له داخلي وما يسكن خوالجه نحوي.

أعلم أنني لن أستطع دون أسامة، لن أستطيع العيش ولا مواصلة الحياة بطبيعية وهو يتزوج وينجب أطفالًا من أخرى، لقد قلتُ له سابقًا إن قدره معي ومرتبطًا بي للنهاية، وها أنا أوفى بكلامي.

يمكن أن تكون حكايتي غير منصفة بوجهة نظر أقاربي وأبنائي في المستقبل، لكنها كانت منصفة ليّ ورأيت أنها ما أستحق بعد كل ما كبادته.

وقفتُ أمسك بذراع أسامة الذي كان يرتدي بزة رسمية وحِلة سوداء وأرتدي عليهم شماغه وعباءته التقليدية الجميلة، وجوارته أنا بإطلالتي الملكية بفستان زفافي الأبيض الواسع، الذي ينساب عليه شعري بنعومة ويُزينه تاجًا بسيطًا من الألماس الحقيقي.

أتسعت إبتسامتي بسعادة أنظر إليه ولحيته الكثيفة وجسده العريض الذي إلتف مع بذلته بإنسيابية، ألا يحق لي التأملُ في زوجي؟

ربت على يدي الممسكة بذراعه، ووقف يوزع الإبتسامات السعيدة للجميع حولنا في قاعة الزفاف، والتي تلك المرة كانت مختلطة بعدما جاء الرجال ليتم عقد القران.

أقتربت غنىٰ مُمسكةً بمريم بِذراعها ومشي خلفها مصطفى الذي كان عابس الوجه قليلًا، قطبت حاجبي بتعجب أسمع همس مريم الهادئ:

"زواج مُبارك يا أُختي، هنئتِ".

قالت وهي تنظر في الأرض برأس مُنتكس خزيًا، مريم لا تزال متحسسة مما فعلت بي أمها كما وإنها تمر بمرحلة صدمة قد تكون شديدة الخطورة فيما بعد.

حتى أنا قد بدأت بمزاولة طبيب نفسي بسبب حالتي السيئة، من يصدق أن الطبيب يزور الطبيب؟

كانت تقف بعيدة عني بإنشات فصلها الفستان الواسع، تركت ذراع أسامة الذي شعرت به يتابعني بعينه ويقترب مني بعدما فصلت ذراعي عنه، لكني فقط أخذت مريم في حضني بحب وحنان.

العناق الأول للشقيقات؟ كان كذلك فعلًا.

شعرت بها تشدد العناق بقوة وتذرف الدموع على فستاني، ربت على ظهرها بِلطف أستمع إلى شهقاتها التي كتمت عند كتفي وتمتماتها غير المفهومة.

مريم هي هدية من الله ليّ، إنها كل شيء أريده وبشدة في حياتي، هي أُختي.. أختي وكفى.

-"رويدكِ يا فتاة، ستفسدين إطلالتي وتجعليني أبكي معك ! ". قلت بمشاكسة فوجدتها تبتعد ببطء وترسم ابتسامة صغيرة وهي تمسح دموعها بذراعيها، ولم أمهلها لحظة إضافية أنتشلها مجددًا إلى أحضاني وأهمس:

"أنت شقيقتي الغالية يا مريم، نصفي الآخر أنت فلا أريد رؤية دموعك الكريهة تلك مجددًا، أُختكِ تُحبكِ تذكري هذا ".

حرصتُ أن يكون صوتي مسموعًا بعض الشيء، ليس بسبب الموسيقى العالية قليلًا لكن كي أثبت للجميع أن مريم هي أختي ولن أسمح لأحد بأخذها مني، والجميع كان متقصر على غنىٰ.

أختلست النظر إليها وأنا لا أزال معانقة مريم، فوجدتها تطالعني مبتسمة بهدوء عكس شرارتها السابقة، تعجبت أفصل العناق وأجد أُسامة يلف يديه حول خصري من الجهة الأخرى.

ابتعدت مريم مبتسمة بهدوء تقف إلى جانب أختها ومصطفى الذي كان ملتصقًا بغنىٰ وكأنه قد وجد ضالته، تبادلت النظرات معهم لثواني دون قول شيء.

وكدت ألتفت إلى بقية العائلة لكني وجدت غنىٰ تقفز علي بقوة وتعانقني متمتة برجاء:

"أعتذر يا غيداء، والله إني أعتذر كثيرًا...".

لم أكن في مرحلة متطورة في حالتي النفسية لكي أخبرها أن لا شيء حدث، لا تزال تذكرني بزهراء الكريهة ولكني فقط ربت على ظهرها وابتسمت لها ابتسامة صادقة، وهي قالت مسترسلة تبادلني الابتسام مبتعدة :

"أنتِ في مكانكِ الصحيح بجانبه، تذكري هذا لأني لم أشعر بشيء سيئ عند رؤيتي لكم".

كانت تشير على أُسامة الذي هز رأسه باقتضاب يشد من معانقته لخصري، وقد جعل عدة فراشات في معدتي تتطاير لوعًا وسعادة.

من يصدق أنني أقف بجانبه بعد كل ما حدث، أن قال لي أحدهم قبل سنة فقط أني سوف أزف لأسامة رغمًا عن أنف الجميع لشهقتُ وتعجبت ولم أصدقه أبدًا.

فكرت بابتسامة شاردة في حديث غنىٰ، على ما يبدو أن أحدهن قد تخطت حبها الهوسي وأخيرًا.

أقتربت منا عمتي دُرّة، أو لأقول حماتي الحبيبة ممسكة بذراع بلال تستند عليه اقتربت إليّ تقول مبتسمة وقد لاحظت الابتسامة من تضيق عينيها أسفل النِقاب :

"لقد حجز لكم نبيل تذكرتا الطائرة إلى مصر، لأن أُسامة أخبره أن أمنتيكِ الذهاب إلى هناك".

بادلتها الابتسام الذي لم يعد يفارقني وقلت مؤيدة بفرحة:

"نعم أنا أعشق مصر وأعشق أهالها، كنت أتمنى لو أستطعت الذهاب إلى هناك".

أومأت عمتي دُرّة برأسها مبتسمة ثم أستأذنت للرحيل، وقد جاءنا بعدها أبي، الذي كان يقف بعيدًا طوال الزفاف ولم يقترب سوي لعقد القران ثم عاد ليراقبنا بصمت.

وقد أقترب الآن يحافظ على مسافة بيننا، كانت المسافة بيننا متسعة من الأساس يا أبي العزيز لا تزدها إستاعًا، سخرت في نفسي.

لم أستطع حتى الآن مسامحته، بل لم يستطع هو التحدث وطلب تلك المسامحة، كان يعاملني بجفاء أعتدته منه، بينما كان يمطر ابنتيه أو بناته الثلاثة بالحب والحنان الذي حرمني منه مبكرًا، لا أعلم هل أبتعاده خوف من الرفض؟ أم أنه أعتاد المسافة بيننا وأعتاد الإبتعاد.

-"مُبارك لكَ يا أُسامة، لتعيشوا برغد وهناء".

أبتعد أُسامة عني هو الأخر يُقبل رأس أبي الذي أحتضنه بقوة وهو يربت على ظهره، ويقول ما وصل لمسامعي :

"فتاتي يا أُسامة، لا تعلم ما قد أفعله أن نزلت دمعة أخرى من غالتيها عليك، يكفيها ما ذرفته قبلًا".

أبتعد أُسامة عن عناقه يقول بينما ينظر إليّ:

"لك ما طلبت يا عم، أنها غاليتي وابنتي قبل ما تكون امرأتي، سوف أُحافظ عليها كما يخاف الناس من فقدان نبض القلب، يتوقف نبض قلبي عندما تحزن هي".

لم يسعني سوي الإبتسام، بحب إمتنان وشجن، مشاعر لم أعرفها سوي معه هو.

ربت أبي علي كتفه بقوة وكأنه يؤكد كلامه، ثم نظر ليّ، ويااليته لم ينظر.

رأيتُ في أعينه ما جعلني أقترب وأقصر تلك المسافة، ببطء أقتربت إليه ألمح نظرة الرجاء والتوسل، الخزي والألم، ما جعلني أقف دون حراك أبادله النظر بحزن.

أقترب مني يقول منكس رأسه كما أعتاد أن يفعل في الآونة الأخيرة، وهمس:

"أنا آسف يا ابنتي... آسفًا على كل شيء".

نقلت نظري إلى أسامة الذي حثني بعينيه على الاقتراب أكثر، وقد فعلت أضم أبي إلى صدري بقوة وأعانقه وأتشبث به وكأنه نجدتي الأخيرة ونجاتي.

تحولت أنظار الجميع علينا فعم الهدوء والموسيقى أصبحت أقل صخبًا، لكني اعترضت وبشدة على ذلك ألا يحق لأبي أن يُرثى قليلًا ويبكي على كتف ابنته ولا يسمع أحد صوت بكائه غيرها؟

أدركتُ ريثما أنظر للجميع حولي، أُسامة الذي ينظر إليّ بكل الحب الذي في العالم، عائلتي المجتمعة حولي بدايةً من خالي، عمي وأبناء عمومتي وأقارب أمي وعمتي جواهر وجدتي، إلى أختي مريم وإلى غنى، ثم إلى أبي الذي يبكي على كتفي بشهقات متقطعة ورجاء... علمت حينها معنى السعادة ...

معنى العائلة ومعنى الدفء على الرغم من أنه كان ناقصًا وجود أمي إلا أنه الدفء الذي لم أستشعره منذ زمن.

تلك هي عائلتي وفي كل عائلة هناك فرد لا يتحدث أحد عنه وهذا الفرد كان أنا، ولم يعد يكون.

فأنا هي خريجة المأدبة، الغائبة الحاضرة، الميتة والحية، أنا هي غيداء آل سعود وتلك عائلتي... وبالمناسبة هم يتحدثوا عني.

تمت بحمد لله